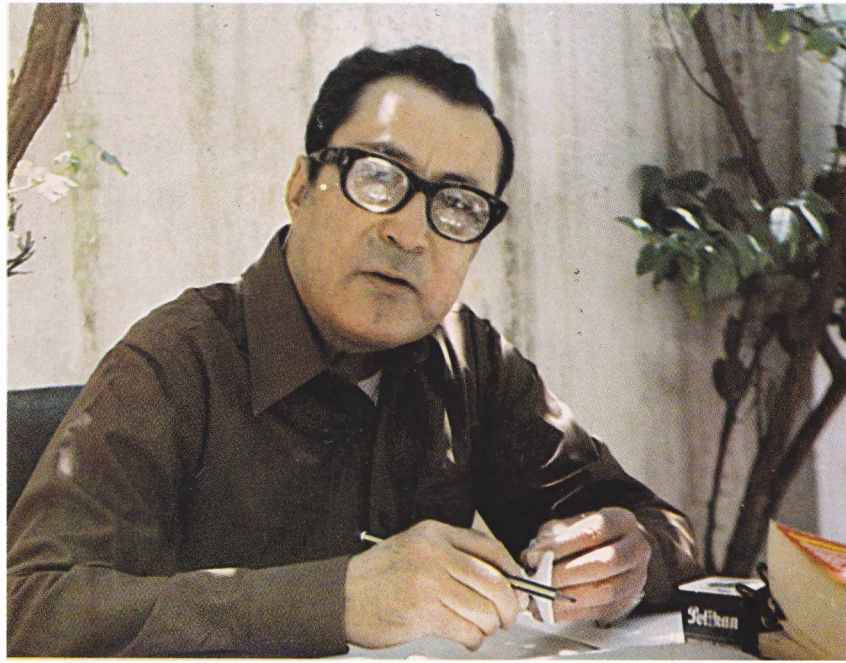


غائب طعمة فرمان

# المرتجى والمؤجل





المرتجى والمؤجل



غائب طعمة فرمان

المرتجى والمؤجل



١٩٨٦





إذا ما الكدح أعياني هرعت إلى سريري. تجد فيه  
أعضائي المنهكة بترحالها راحتها العزيزة، ولكن رحلة  
تبدأ، عندها، داخل رأسي تشغل الذهن بعد أن قضى الجسم  
شغله.

شكسبير

(السوناتة الثالثة)





— أحدثك يا حسان ، عن اناس من بلادك ، رحلوا طلباً للعلم أو للرزق أو هروباً من ظروف قاسية ، وقالوا ماهي إلا أعوام ، ونعود موفوري الصحة والعلم . ولكن الغربة استطالت فراخوا ينسجون على منوالها قصصاً لهم وحكايات ، واقعين بين حبال الانتظار . وسأحكى لك عن قصة اخراجها مخرج هزلي يسمى قدر غاشم ومثلها شلة من هؤلاء الذين ظلوا ينتظرون القطار طويلاً . والعمر يفوت .

كان يحيى سليم ، وهو واحد منهم ، جعله المخرج كلما فتح عينيه في صباح ، واستيقظت حواسه ومداركة ، استعاذ بالله من يوم آخر لا يأتي بشيء جديد ، يقضيه في عمل رتيب ... ولكنه كان يفرك عينيه ، يمد ذراعه اليسرى الى جهاز راديو صغير ، ويدير مفتاحه ليسمع أخبار العالم . فلعل معجزة قد وقعت . ولكنه كان يصاب بالسأم ، حين لا يبلغ سمعه غير أخبار سوررات صغيرة ، لانغير من الأمر شيئاً ، مع الكثير من ضجيج الأثير وحشرجاته .

ويبدأ الفيلم حين يستيقظ يحيى سليم ويستعيد بالله ، بيده الراديو الصغير ، فلا تقع يده على شيء . كان مغمض العينين فيتذكر أنه ترك الراديو البارحة في المطبخ . ولم يجد بدأ من النهوض . كان الصباح الذهبي يملأ حجرتة الوحيدة ، ويعطي الكتب والمنضدة والكرسيين الوانها الحقيقية ، مع ابتسامة نور مرحة ، وغمزات ظلال خفيفة تتراكم على الجدار هدية من شجر حور عالية ، كانت تحرس بيته ، وتصل ذراها الى حجرتة في الطابق السادس . استبشر خيراً . نهض ليستقبل بسمات نهار جديد ببسمة ودية متفائلة بلعل وعسى ... أزاح الغطاء عن جسده ، وبخطوات قليلة وصل الى النافذة العريضة الخالية من الستارة . كان يكره الستائر بكل أنواعها لأنها تحجب النور عنه . أطل من النافذة ، ورأى الناس يسرون مستعجلين الى أعمالهم . ود لو يكون مثلهم ! ذهب الى الحمام ، وحلق ، واغتسل ، ودخل المطبخ ليعد له فطوره . أخرج بيضتين متبقيتين في الثلاجة ، ووضع الزبدة في المقلاة ، ووقف ينتظر ذوبانها . ثم اشتاق الى أن يسمع أغنية من بلاده . ذهب الى الراديو المسجل الموضوع على افريز النافذة ، ووضع كاسيتة فيه ، واستمع الى الأغنية . ربما تذكرها ! « لآخر ، لاجفية ، لاحامض حلو ، لاشربت » . أنت تعرفها بالتأكيد ، كم غنيناها سوية ! ستتذكر حتماً . وعاد صاحبنا الى الموقد فرحاً ، فرأى احدى البيضتين لحقت أن تتدحرج من على سطح الموقد ، وتسقط ... رأى صفارها على مشمع المطبخ

المصنوع من مربعات بيض وزرق . اشأاز . تشأم . ولم يعجبه حتى أن يكسر البيضة المتبقية . ولكن الجوع قتال ، ياولدي ، والزبدة ماعت وفاحت رائحتها الشذية . كسر البيضة بخافة السكين ، وتركها تسقط على وسط المقلاة ، وراقب الزلال يتجمد ويبيض . ثم قعد يأكل . أفكار سوداء طافت في رأسه كالحفافيش ... لأن فاضل عواد كان ينوح بصوته المتهدج الخنون ... « والتمت الحلوات ، عيني ، أئمت . » وكان يحبى وحيداً في بيته ، حتى تصور نفسه عصفوراً دخل من الكوة المفتوحة في أعلى النافذة ، جاء طائراً من غصن عال في شجرة الحور هناك ، فوقع من حيث لا يدري ، حبيس هذا المطبخ الضيق العبوس . أكل يحبى بيضته الوحيدة ، وعاد الى حجرته ، فرأى الأوراق ، والكتاب المفتوح ، والقواميس ، فعبس وبرطم ... ولكنه عاد فجلس الى المنضدة ، لأن عليه أن يعمل ... وعمل أربع ساعات حتى زهقت روحه ، ونهض .

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة . وخلال ذلك كان صالح جميل ، وهو من شلة الممثلين نفسها ، قد استيقظ من النوم لتوه ، مثقل الجفنين ، محلول المفاصل ، لزج اللسان وكأنه أكل « شريساً » . تلمض ، وتقطي ، ودفع عنه رجله ويديه ، وتوتر رقبته مبعداً عنه رأسه الثقيل ، وكأنما يريد أن يتخلص منه ومن رقبته ومن نفسه كلها . وأحس بذلك العطش الصباحي الملعون . فاشتبى أن يشرب ليزيل تفكك جسده ، ويعيد تركيب أطرافه المحلولة . واشتاق الى جعة . أراح البطانية في ضيق وعجالة ونظر الى الساعة الموضوععة على المنضدة مع قرح من الماء تعود أن يشربه بعد منتصف الليل ليعيد الخدر والنعاس الى رأسه . كانت الساعة الثانية عشرة والنصف . ذهب الى التواليت لقضاء حاجته الصباحية ، ثم الى المغسلة ، فلبل أطراف اصابعه ، ومسح بها عينيه اللزجتين بهذا الشكل ( مر الرجل سباته على عينيه بشكل جعل الطفل الراقد على السرير يتسم ابتسامه شاحبة ) ثم حلق بيد لم تكن تطاوعه كثيراً ، فكانت الموسى ترتطم بشاربه الأثيب ، ثم تردت الى أنفه أو ذقنه معوجة ، حتى فرغ من حلاقة مستعجلة بمقدار جيد من نجوم الدم الأحمر على بشرة وجهه الرقيقة . مسح بقية الصابون بالفوطة ، وتهاياً ليصنع له طعاماً خفيفاً ، تناوله بلقم متباعدة ظل يلوكها طويلاً عسى أن يستدر اللعاب من فمه . ولكن الشريس قد جف ، وصار يحتاج الى ترطيب بسوائل غير الماء الذي كان لا يروي عطش صباحاته ، بل ولا يربطها . عند ذاك أمسك بسماعة التلفون ، وأخذ يتلفن الى أصدقائه الذين لأعرف لماذا كان يسميهم « الخرفان » هم بقية ممثلي الفيلم ... أما لأنهم أحرفوا أو خرفوا من طول المقام في مكان واحد . قال أحدهم ، وهو الذي كان يعمل وسط القواميس . « لم أكمل بعد حصتي اليومية من العمل » وقال آخر ، وهو طالب الدراسات العليا من نفس الجماعة ، قال حين استدعوه للتلفون من المكتبة التي يدرس فيها « والقرامطة لمن اتركهم ؟ ساتيك بعد ساعتين » . وقال الثالث وكان يقوم بدور الرسام : « ستصيني بعمى الألوان ، وكيف سأرسم بعد ؟ أنا لأحب الشرب في الظهر ... » فعاد وتلفن الى يحبى سليم ، فقال له : أنت وين ، وآني وين . راح تضع

مني المشيتين، تعصت على جملة لأعرف كيف أترجمها. قال ستعرفها هناك. وكان يقصد بـ « هناك » الطابق الثاني من مكان في وسط المدينة، مخصص لبيع المشروبات الروحية. أرى في عينيك تساؤلاً، يا ولدي. ستعرف هذه الكلمة فيما بعد، حين تتعافى، وتكبر، وتدخل معترك الحياة، وتتذوق، وتتصادق، وتجرب مافي الدنيا من طعم ونكهات. ولنعد الآن الى صالح جميل، الممثل المغرم بالمشروبات الروحية يتجاوز أحياناً حده، فتصير ضده. غادر البيت عجولاً، ملتهب الجوف، يابس الفم. وذهب الى المقهى الذي في الطابق الثاني، وطلب قدحاً من شراب روحي يسمونه شيبانيا. وجلس وراءه ينتظر الممثلين « الخرفان »، لأنه، هو الآخر، يخاف الوحدة، ولا يطيق الجلوس الى مائدة لاتنادمه فيها كأس أو صديق، والأحسن كلاهما. وهكذا جلس يشرب، وينتظر. وخلال ذلك كان صاحبة يجيى سليم قد عثر على ترجمة لجملته المستعصية، وأخريات مستعصيات أكثر. تمطى ضاغطاً بحسمه على ظهر الكرسي، ومحرماً كفيه الى الوراء، ولولياً رقبته يميناً وشمالاً، متحسناً عضلات ذراعيه. كانت مفاصله كلها توجهه من جلوسه الطويل في وضع واحد، طوال ساعات، فارغ الذهن إلا من الكلمات التي كانت تتفاقر أمام عينيه كالضفادع. فلا تتصور أنك وحدك مضطر الى أن تظل على وضع واحد ساعات. تلك حالات الاضطراب يا ولدي، ولا يمكن أن تدوم الى الأبد. رن التلفون فجأة في غرفته الصغيرة، فخط كالزنبك. كان كل زين جرس، بعد انتهاء العمل، يفرحه مثل رسالة جاءت من الوطن. أخبروه من العمل أن برقية وصلت باسمه، وعليه أن يأتي ليتسلمها. ومن شدة اضطرابه لم يسأل من أين. وفي الطريق قلب في ذهنه كل الاحتمالات. وكلها لاتسره. فإن أي برقية تعني أخباراً بشيء عاجل مفاجيء، وأي شيء عاجل مفاجيء في حياته الراكدة، إن لم يكن نعيماً لشخص عزيز توفي أو تحذيراً أو طلباً لنجدة من شخص يحسبه مختار ذاك الصوب. ولم يدر كيف وصل من كثرة انشغاله بالهواجس والظنون. وتسلم البرقية بأصابع مرتعشة وانزوى جانباً، وفتحها بأصابع أكثر ارتعاشاً. وقرأ سطرها الوحيد، وأحس بجيوش النمل تغزو رقبته وظهره... لاتبخلق هكذا، يا ولدي، لم يميت أحد، ولم يطلب منه شخص شيئاً فوق طاقته، مجرد أن زوجته... أقصد زوجته السابقة. يعني المطلقة أبرقت له تطلب أن يستقبلها وابنها في محطة القطار. وكان هذا الرجل الذي جعله مخرج الفيلم تعيساً قد طلق زوجته منذ سنوات، وافترق عنها لأن كليهما توصل أن العيش في بيت واحد صار مستحيلاً عليهما. وشعر يجيى سليم بأنه محاصر، وبأنه وحيد، واحتاج الى مايكاشفه في هذه اللحظة الدقيقة في حياته، فتذكر صديقه صاحب المشروبات الروحية، وعرف أين يجده. كان صالح جميل قد فرغ من قدحه الأولى، وبدأ بالثاني. لمح يجيى من بعيد كتلة حمراء متوهجة، وراء منضدة زرقاء مستديرة، يتوسطها قدح لؤلؤي عالي الساق، متلألئ بما فيه كالدرة. تلقاه صالح ببشاشة، وسلم عليه بمرح. وقال له: ماذا تشرب؟ قال: أي شيء. أعصابي انقلبت الى بهلوانات سرك تحت جلدي.

قال له: يعني الجملة مازالت مستعصية عليك؟

قال: لا، بل جوبت بأصعب منها. قال: ماهي؟ سكت يحيى سليم، وارتبك، ولم يعرف كيف يفتح الموضوع. كيف ينش قبر الماضي... فان ذلك حرام، ياولدي، حرام أن ينش قبر، أو يشق جرح مندمل، أو يكسر جناح طائر كان قد كسر من قبل. ولكن عقدة لسانه، أقصد لسان يحيى قد انفكت حين رطب جنجرتة بسائل محبب، وباح لصديقه بما عليه أن يجابهه. سأله صالح:

— كم مضى على فراقكم؟

— أكثر من أربع سنوات، لم اتسلم فيها قفاصة ورق، ولا معابدة... وأراد أن يقول: «لاحير، لاجفيه، لاحامض حلو...» لأن الأغنية التي استمع اليها في الصباح ظلت تطن في طبله أذنه حتى الآن. قال له صالح: اذهب. ألا نحن لابنك؟ وكيف لا نحن اب لابنه؟ جفت حنجرتة، فشرب من السائل المحبب. قال له صديقه: اذهب واستقبلها وابنك، ولكن لماذا جاءت؟ قال له يحيى: لأدري، هذا الذي يحيرني. هل جاءت لتصلحني، وهي التي نستني تماماً؟ حطمت كل الجسور، كما يقولون في الكتب. والماضي الآن، أقصد حياتنا الماضية، راقد هنا، في الصدر، بعد أن صرت أهيل عليه التراب أربع سنوات. فلماذا تنبش الماضي؟ ظل الصديقان يجرعان الشراب جرعة جرعة. ومع كل جرعة كان يرطبان قشرة التراب المتكلسة، حتى أوشك الماضي أن يفوح من خياشيمهما، كرائحة جرة عتيقة. لأن صالح جميل، ذلك الرجل القصير، الشبيه بضابط تركي متقاعد، ولكن بحجم مصغر كان شاهد عرسهما. وكان قد شرب كثيراً، في حفلة العرس، على عادته. وخطب خطبة سياسية عصماء شتم كل من يستحق الشتم ومن لا يستحقه، حتى حدث هرج ومرج، وصياح وغياط، وانقلبت كراس، وارتق دم العنب على الخوان والجيران والجدران. وهربت العروس الى المطبخ، وراحت تبكي وهكذا، يابني، نحن العراقيين نقلب الأعراس مآتم، والمآتم أعراساً. ولكن السيد صالح جميل، ذلك الضابط المتقاعد، نسي كل ذلك. وقال: اذهب واستقبلها، وستعرف الخير اليقين. ولكن اياك أن تأخذ زهوراً زوجية، مثلما فعل أصحابك حين جاءوا بياقتين، كل باقة بثلاثة زهور، حتى يظهروا كرمهم الحاتمي، فصار العرس مناحة. قال يحيى سليم: سأخذ لها وردة واحدة، حمراء قانية، مثل قلبي. فقال له صديقه: وخذ شوكلاته مثل لسانك الحول الذي يجلب لك البلاء. وأخذنا يتحدثان على هذا المتوال حتى أطل عليهما صديقهم الثالث، الذي يمثل دور الطالب في الدراسات العليا، وبحسب نفسه علامة فهامة. قال ذات مرة أن كتبه ستملأ سوق السراي. جاء مرفوع القائمة متمشياً وكأنه يريد أن يلقي محاضرة هكذا جعله مخرج الفيلم. ولكنه بدلاً من أن يكون متباطاً بعض الكتب الصفراء كما هو منتظر من رجل يدرس القرامطة، كان يتباط ذراع فتاة، قال انها زميلته في المعهد، والعهدة على الراوي، تساعدة في تعلم اللغة

وخشي يحيى سليم الذي ستأتي زوجته السابقة اليوم ، ان يرطب بلعومه أكثر من اللازم ، فاعتذر عن البقاء أكثر ، وانصرف لاتكاد الأرض تحمله من الفرح ، تساعده في ذلك الغازات الأثرية التي تطايرت الى يافوخه . وبعد أن عمر ثلاثته بما لذ وطاب للقادمين في قطار المساء ، تعطر وتزين ، واشترى وردة وشوكولاته وذهب الى المحطة وإذا به يراها ، أقصد المحطة ، وكأنها في يوم الحشر ، غاصة بالناس ، وكأنهم جاءوا جميعاً لاستقبال زوجاتهم المطلقات ، أو ازواجهن المطلقين . واستغرب أن يرى ، وهو الذي نادراً ما يذهب الى محطات القطار ، فرقة موسيقية كاملة مصطفة على أحد الأرصفة تعرف نشيداً حماسياً جميلاً مثل نشيدنا ... « نحن الشباب لنا الغد » وكأنما تحرب به ، وتبارك بحجته . وشاهد عشرات من الناس يحملون مثله زهراً ملونة ، وبالونات هوائية ( تمنى لو كان قد اشترى واحداً منها لابنه ، لو لم يستح من شاره ) ، وكان الناس يتحركون حركات الانتظار اللاهفة . وقف ، وانتظر مع المنتظرين حتى يعلنوا اسم الرصيف الذي سيتوقف عليه قطار نادية وفريد ( هذا اسم زوجته واسم ابنه كما في الفيلم ) وبعد دقائق يمس من سماع الاعلان ، وسط هدير الموسيقى الحماسي المتصاعد ، فابتعد عن زحمة الناس ، وسأل عن القطار جمهرة من الحمالين كانت تقف بعرباتها الفارغة بترقب . أشاروا له الى الرصيف . كانت القطارات تروح وتجيء مبتلعة أو قاذفة عدداً هائلاً من الناس حتى خشي أن ينقصف ساق وردته . قلبه الذي يحمله ، وشق به صفوف الناس الى الأرصفة الفارغة ووقف هناك ينتظر قدوم القطار . كان رأسه خالياً من كل فكرة . ربما تعب ، واستسلم الى الشوشة والى قدر يوشك أن يقع . وخلال ذلك لحقت السماء أن تتغير ، فتلبدت ، واكفهر وجهها . ( لقطه سينائية احب المخرج أن يظهرها على الشاشة ) وسرت ربح محملة برائحة عفونة واحترق وسخام ، وصدأ حديد وزنخ النفايات ، وأنفاس ناس كثيرين كانوا ينتظرون مثله ، أو نزلوا من قطارات قادمة حاملين معهم روائح رحلة طويلة ، ومناطق بعيدة ترصع الظلام بدوائر فسفورية من النور ، حين أضيئت الأنوار ، وشعر يحيى سليم بفرح مقلق ، وقرب الوردة من أنفه ، وشم فئات رائحتها الضائعة بين آلاف الروائح . وبدأ الناس بقدون على الرصيف الفارغ ، وقرقرعت عجلات الحمالين على الرصيف الصلب . وسرى تيار خفيف من الرعشة في أوصاله . تصور تقاطيع غامضة موزعة بين آلاف الذكريات والنظرات الى وجهها . لون شعرها الحنائي الفاتح برز في مخيلته يوظر وجهها الأبيض اللهوف ، وعيناها الخضراوان ، وأصابعها الطويلة المرتبكة ، حين كانت تزاول أعمال المطبخ في غير رضى ولاقناعة . ومن يدري ، يابني ، فلربما شم رائحة أسرة أليفة رقت حوله من بين عشرات الروائح ، مثلما تشم أنت رائحة شخص عزيز عليك ، أملك أو جدتك أو حتى أبيك . تلك هي رائحة جسدها الفتى المعافى . وامترجت تلك الرائحة بأريج الوردة القريبة من أنفه . وظهر في الفيلم ضوء من بعيد ، وظهر بوز القطار من منحني الطريق العريض المشروط

بعشرات الخطوط الحديدية، اللامعة منها والمسودة. وتعالى لفظ الناس يتصاعد من حوله يحیی سليم حتى غرق في أحاديثهم الخرافية، التي ومحت كل صورة في ذهنه... وصار واحداً منهم، ينتظر مثلما ينتظرون، ويستعجل مرور اللحظات. أقبل القطار ببطئه اللامبالي، وكأنه يغيض المنتظرين، دمدم المحرك الكهربائي، ماراً به، وتهادت العربات أمامه، وفي منافذهم المفتوحة الى النصف تطل عشرات الرؤوس الملونة الغريبة السحنات، المتعبة القلقة، الضاحكة والجامدة التقاطيع، المترتبة الحائنة، وراح يبحث بقلق وافاق عن وجهها من بين كل هذه الوجوه. وبعد لحظات بدأت الهتافات تتردد على الرصيف، ومن النوافذ المفتوحة، حين أخذ القادمون والمستقبلون يتعرف بعضهم على بعض، كل أليف يتعرف على أليفه، وبرزت عشرات الأكف تلوح للمتظرين. وضاع هو بين ثنايا تلك الكتلة المضطربة الرجاجة، الزاعقة المهللة، وفي لحظة الضياع تلك يمس من أن يتعرف على زوجته السابقة في أمواج هذا البحر البشري. ومثلما هو، في كل الأحيان، استسلم للحظة الحظ، وما تحببه المصادفة، وارهف سمعه لعل اسمه يتردد ضائعاً في ثنايا النداءات العارضة المتشابكة. وعندما وقفت العربات تماماً، ولم ير أو يسمع شيئاً، تحرك الى الأمام... ولكن يداً مست كوعه، والنفت فراها...

طافت نظراته الهائمة في وجهها المتعب الباسم، المؤطر بمنديل أبيض بورود حمر، وارتيك ارتباكاً شديداً، وكأنه يلتقي امرأة غريبة عليه، لأول مرة، كانت هاشة باشة به. ولم يعرف ماذا يفعل. والناس لم يساعده على أن يستقبلها باللازم. كانوا يدفعونه من كل الجهات، أو ينسلون في المسافة القصيرة الفاصلة بينهما. قدم لها الوردة. وسألها والصغير؟ أشارت الى مخلوق يختفي وراء أذيالها. رفعه عن الأرض. وقبله بعمق وحدة سنوات الفراق الأربع، وأحس بأن الطفل يلتصق به. ربما تذكر أباه، أو ربما لأن الناس أربوه، فوجد منجاة في الذراعين الغريبتين المحتضنتين إياه بحنان فائق. قدم له الشيكولاته ليزيد من حرارة الحنان. وساروا باتجاه مبنى المحطة، وقلبه يدق قرب قلبه ابنه ولثامت جسد زوجته الحار على جسده البارد، حين كان الناس يحصرونهم في حيز ضيق. وكان ذلك مثل طوق نجاة خلصه من الكلام... والسلام... ولربما من العقاب أيضاً.

في سيارة التاكسي، حين أعطى يحيى للسائق عنوانه رأى وجه زوجته السابقة يستدير نحوه بالفتاة اندهاش سريعة وعرف ماتعني هذه الالتفاتة الحادة المتسائلة والبريق الخاطف من عينها الحائرتين. تتم يحيى: « غيرت شقتي القديمة »، وضاعت هذه الجملة في صمت محرج، فأمسك بيد الطفل الصغيرة، ومال نحوه، وسأله سؤالاً ليس في مكانه: « هل كنت هنا من قبل؟ ورن السؤال منحوساً في الصمت الموحش. ردت نادية، وهي تحني رأسها نحو الطفل: « كان ! ولكنه ! ووخزته جملتها كبرة مسمومة. تلت ذلك فترة صمت، كان لسانها فيها مشلولاً بجيشان العاطفة.

... وانقطع كلام المتحدث، حين صدر من خلفه صوت ناعم حاد النبرة:

— انتهت المقابلة. اتعبت المريض من الكلام. فنهض الرجل وقال لابنه:

— سأتيك غداً، يا ولدي...

لم يبد على الطفل غير شرود وانقطاع عن الدنيا، ولم يظهر أي تأثير على وجهه الشاحب الهزيل. وقبله الرجل من خده وتمنى له ليلة سعيدة، وانصرف. وعند الباب، في أقصى الردهة، رأى عينيه السوداوين مصويتين إليه، ولكن ببيكم حزين.

في اليوم التالي جاء الرجل، فرأى ابنه من بعيد ينتقل بصعوبة من الكرسي المتحرك الى الفراش. توقف الرجل عند باب الردهة شاعراً بوخزة في فؤاده، بينما جاء منشرح الصدر. فقد كان الربيع في الخارج يقيم للبشر الطلقاء الأصحاء مهرجاناً مترعاً بالألوان الزاهية. وكانت الشمس تغمر الناس والأشياء بظلمها الذهبي الثر، وتهدهد الأعصاب بدفقها الناعم الحميم. وكانت البراعم قد بدأت تتفتق في الأعواد الكثيرة العارية المكتسية حمرة أوائل الصبا، وخضرة الريتون، على جوانب الأرصفة التي سلكتها حاملاً معه كيساً ورقياً معبأً بالكرز القادم من الجنوب، وبعض الخيار الفوض البرائحة صيف مقبل، وإجاصاً مجففاً كان الأطباء قد أوصوا عليه، لأبنة، لتلين أمعائه المكتظة من طول الاستلقاء على السرير، تريح في الباب حتى يستقر ابنه، وتهدأ أنفاسه. وجاء اليه باسمياً بكل فمه العريض، وأدى له التحية العسكرية مزاحاً، وسط أنظار المرضى الآخرين، وقال:

— هاقد جئت اليك بهدايا الربيع، يا حسان، وتركته واقفاً عند باب البناية بانتظارك.

ولمعت عينا الرجل يهيق عجائبي، وكأنه تذكر واحداً من لداته السابقين، وقرب الرجل الأكياس منه ليرى ما فيها، ثم مسح براحه يده ثمرة كرز ريانة، وأذناها من شفتيه، فتلقتها الشفتان الرقيقتان، وتندتا بعصيرها. وبعد أن جرب الصبي كل الفاكهة، ماعدا الاجاص المجفف، استرخى على الخددة، وحرك رأسه حتى اتخذ وضعاً أروح. كان الرجل ما يزال بيتسم، والصبي ينظر إليه، وكأنه لا يعرفه ولكنه يستأنس به، أو أنه يفكر في شيء آخر بعيد عن عالم الرجل. قال له:

— إيه، حسان، كيف الأحوال؟

— هز الصبي رأسه، وقال:

— زين، وتصالحو؟

— من؟

— في الفيلم...

— ها! ... يحيى وزوجته السابقة؟

وضحك الرجل ضحكة خافتة اطالها ليستجمع أفكاره من هذه المباحثة، وتخبر لحظة



لايعرف ماذا يقول، ثم قال :

— لا، يا حسان ... لأدري بالضبط ... فقد نسيت تفاصيل الفيلم . ولكن أنت يهيك  
الطفل، تمام؟

صمت الصبي صمتاً غامضاً ، ربما لأنه غير قادر على أن يهز رأسه .  
— طيب، سأحكي لك قصته ... أين وصلنا؟  
— أخذهم الى البيت .

— أها .. — واستقر الرجل في مقعده جيداً ، وقال — وصلوا الى البيت ، فسألته الزوجة  
عند دخول البيت على ماأذكر : شقة جديدة؟ أجابها نعم، وفي الضوء الساطع رأي عينها  
الخضراوين، لأول مرة، نفس العينين المألوفتين له، بلون الزمرد الفاتح، بلون تلك الخرز التي تباع  
عندنا في شارع المستنصر . هل تذكر أيام كانت أمك تأخذك الى هناك ( كان في عيني الصبي  
تساؤل حائر ) فقال له الرجل إن كنت لاتذكر الآن فلا تتعب نفسك ستذكر فيما بعد . ولكن  
لاتقل لي أنك لاتتذكر أمك التي أرضعتك، والمدينة والشارع والبيت الذي ولدت فيه . إذا نسي  
الانسان هذه الأشياء نسي كل شيء . فماذا سيتذكر في هذه الدنيا بعد؟ دعنا نؤجل ذلك الى  
وقت آخر . أردت أن أقول أن بطل الرواية يحيى سليم رأى تلك العينين بلون الزمرد الفاتح، ولكن  
بخلقات متفاوتة في العمق، ولم يجد صعوبة في أن يقول، حين سألته : « لماذا غيرت الشقة؟ »  
وماحاجتي الى شقة كبيرة . ولم يقل « فراقكم » . فقد كان يصعب عليه أن يقول ذلك .  
وكانت هي مشغولة في خلع معطفها وحذاءها . وكانت هالة شعرها بلون الكستناء، تلك الفاكهة  
التي كنت تفخرها وتأكلها في الشتاء، كانت هالة شعرها الكستنائي تلمع في الضوء وهي تروح  
وتجيء في الغرفة الصغيرة . وكانت قد تركت ابنه فريد يسرح في الغرفة الصغيرة، يغطي رجله بعد  
تلك الرحلة الطويلة في القطار، وانشغلت هي باخراج علبتين من مرني الكرز البيتي، مثل تلك  
التي كانت تصنعها أمك من الكوجة والمشمش، وقالت وهي تقدمها له : هذه من بلدتنا . ولأول  
مرة تقابلت نظراتهما، في لحظة خاطفة زرعت الرجفة في أصابعه . قال بلسان جاف، مثل  
لسان صاحب الممثل الهزلي صالح جميل حين يستيقظ في الصباح : سأهيهء العشاء . قالت :  
للطفل فقط . أنا بحاجة الى شاي فقط . وبدت له جملتها أليفة ودود، فلت قيوداً وحلت عقداً  
من أعصابه المشدودة . وإن كان يود لو سمعها تقول : لابنك، لالطفل، كما قالت، والخرج  
الشيطان تقصد أن تقول ذلك . ولم تقله . وراح يحيى سليم وجاء خفيفاً في المطبخ، وأخرج كل  
مافي الثلاجة الصغيرة، وزجاجة من تلك التي يحب صالح أن يحتسي شيئاً منها بعد فطوره بعد  
الساعة الثانية عشرة . ووضع الأشياء على المائدة، وملاً سخان الشاي، ووضع على عين الغاز .  
ثم وضع المقلاة والزبدة فوقها، وتحير أبقى في المطبخ، أم اليهما . مد رأسه من طرف الباب،  
فرأى ابنه يلوك الشوكولاته . وحين رآه الطفل أقبل عليه . وشعرت المرأة بوجوده عند الباب .

مسد الرجل على شعر الطفل، وقال له: « لا تأكل الشوكولاته الآن . في انتظارك دجاجة كاملة لتأكلها » . وكان يطوق الطفل بنظراته العطشانة، وينغمر في خيمة رائحته الممزوجة بعبق الشوكولاته . وجد الرجل الفرصة ليعتصم ابنه، باحثاً عن الشبه بينه وبين الطفل، مثلما يفعل كل الآباء والأمهات، وقد فعلت أنا ذلك من قبل معك، عندما كنت صغيراً، ولأزال . ( وضحك الرجل في حنان لايناسب سنه فوق الأربعينية ) عيناه سوداوان تلمعان بنوع من الغربة وبما يشبه التيم . وشعره كالفهوه المحمصه، كثيف، مبعثر على جبين ناصع البياض مثل وجهه . ( نسيت أن أقول لك أن الفيلم كان ملوناً ) . وعندما استقر فمه على لوك الشوكولاته رأى يحبى الشبه صارخاً، او هذا ما بدا من نظراته، إذ رأى في استدارة الذقن، وتكوين الشفتين، والبسمه المندمسه على القم الصغير الملطخ بالشوكولاته، واطلالة الأنف القصير . وكل ذلك كان عزيزاً عليه وقريباً من قلبه أشعره بألفه وحنان ، وشيء من الوحشة لسبب لايعرفه تماماً . ود لو يحمل الطفل بين يديه، ويلثم رقبته وصدرة، وأذنيه، وأنفه، وعينيه، وجبينه، مثلما أود أنا الآن، أن أفعل معك، لولا وجود المرضى هنا . ويحبى أيضاً خشى أن يخاف الطفل الذي لم يآلفه بعد، وان كان أباه . وسمع زوجته تناديه . خف الى المطبخ..

— ماذا تريد أن تفعل؟

— أغلي الماء، وأقلي الدجاجة .

— ولكن الموقد بارد .

— أوه، نسيت أن أفتح الغاز .

— آه، يحبى، يحبى ...

وضحكت ضحكة حزينة ، ... ومثلما تفعل أمك حين كانت تجدني متورطاً في تحضير شيء في المطبخ . اقترب منها، من زوجته ... السابقة، وشم رائحة جسد فتى معاف، مضمخ بروائح برار وغابات عذراء . وهذا ما بدا من انتفاخ منخره بالخدر يسري في شرايينه . وكاد يرتكب حماقة، إلا أنه أبعد رأسه عنها، في اللحظة التي سمعها تقول، وهي تمسح قعر المقلاة بالدهن الذي بدأ يذوب :

— غيرت بيتك القديم، إذن .

— ها أنت ترين .

— أجبروك أن تفعل، أم أنت الذي أردت؟

— الاثنان معاً .

ولم يقل أن كل شيء في البيت القديم كان يذكره بها وبابنه، تماماً كما يذكرنا بيتنا في حيننا القديم بمولدك وضحكاتك، ولعبك، ومرحك . ولم يشر بحبى بشيء الى ذلك الاحساس بالخوف

الذي يلازم الناس جميعاً في الأشهر الأولى من غياب شخص عزيز عليهم . لم يقل لها غير تلك الجملة الحياضية التي لاتعني شيئاً ، والتي تلقنتها المرأة بيروود ، ولم تعلق بشيء عليها . ظلت مشغولة بتقليد الدجاجة ، ثم قالت أخيراً ، تماماً كما كانت أمك تقول ، حين تزهد من المطبخ .

— لم هذا كله ؟

— هذا شيء اعتيادي .

— هل أنت جائع الى هذا الحد ؟

— لا ، أبداً... ولكن لك ... للطفل .

— قلت لك : أنا لأريد غير الشاي . والطفل يقنع بعصيدة ، هل عندك حليب ؟

وقدم لها زجاجة حليب . ولما تهيأ العشاء ، جلس ثلاثتهم ليأكلوا ويشربوا الشاي .

وكان صاحبنا يحيى سليم قد « هرب » الزجاجة التي كان يحب صالح جميل شربها ، من المطبخ الى الحجر ، وحين هم بفتحها قالت له بشيء من الضيق : « افتحها بهدوء ، حتى لايجفل الطفل » . وحين فتحها بكل هدوء ، رأى ، وهو يسكبها في قده ، ذلك العتاب الجارح من امرأة ضبظت زوجها يغازل امرأة أخرى ، نفس ذلك العتاب القديم الذي كنت أراه في عيني أمك ، حين كنت أرطب فمي ، وأخذ بمداعبتك ، وأضعك في أحضاني ، وأنت طفل صغير ، وأقبل وجنتيك بشفتين رطبتين . فتمسح أنت موضع قبلاقي بيدك . ولكن يحيى سليم أغمض عينيه حتى لايرى نظرتها ، وشرب جرعة طويلة من ذلك السائل العجيب . وحين فتح عينيه ، ونظر اليها للمرة الثانية ، رأى على شففتها الناعمتين ابتسامة باهتة محملية اللون ، وكأنما سمعته يعطس ، ولم يقل لها عفواً . سألتها للمجاملة كيف كانت رحلتها . قالت : متعبة ومسلية . متعبة لأن الطريق طويلة ، والقطار مزدحم كان يتوقف في كل المحطات . ومسلية لأننا مررنا بمناطق الدنيا كلها تقريباً . كم هي شاسعة وخضراء ومتنوعة بلادنا هذه ومأغناها ! ليس هناك أروع وأجمل من المناطق الطبيعية في بلادنا ! ليست رتيبة أو منبسطة ، بل مجسمة غزيرة الألوان ، مهيبة ، راسخة ، تجعلك تحس بصلاية الأرض تحت قدميك . ولم يلمها في اطالتها الوصف ، وتغزلها بطبيعة بلادها . فإن كل حزب بما لديهم فرحون ياولدي . ونحن أيضاً ، أبناء الصحراء ، نتغزل في طبيعتها ، ونرى حصاها خيراً من الشهب ، وثراها أعلى من الذهب ، تمنى السماء لو ليست حلة من طرازها العجب ، كما يقول الشاعر . ذلك حب الوطن ، وهو عاطفة سامية في الانسان . والحب ، بشكل عام جميل وآخاذ . وهو نوع من الايمان . والايمان لحمة الحياة وسداها ، نشوة الأمل وشجاعة القلب . ثم سأله عن حياته . فقال : لاشيء جديد فيها . يعني : لاأمل ؟ قال : الأمل موجود دائماً ، وإلا فستكون الحياة ليلاً طويلاً بلا فجر . وكيف أهلك ؟ قال : بخير . هل يرسلون لك الرسائل ؟ نعم ، ولكن على ظهر سلحفاة . ضحكك وقالت ماذا

يكتبون؟ قال: بعضهم تزوج، وبعضهم أنجب، وبعضهم قضى نجبه. ثم أضاف في سره: « وابدلوا تبديلاً ». كانت الشيمانيا قد استخفته فترنم بها ترنيماً. ولابد أن زوجته السابقة تذكرت ترنيمه الجميل، عندما يغلغ عليه باب الحمام، أيام زمان، حين كان ينشد كالطفل الصغير: « رأيت عشاً للعندليب، بناه فوق الغصن الرطيب » وضحكت نادية، وضحك الطفل بالتبعية. وبقي يحيى سليم معها الى أن فرغت الزجاجة مأسوفاً عليها. وحين أخذوا يتهاون للنوم، قالت الزوجة السابقة، لأول مرة:

— سنثقل عليك.

— أرجوك.

— ماهي إلا أيام، ونرفع الرحمة...

وأصاب الممثل وجوم شديد، ولم يجب، تابعت تقول:

— المؤتمر سيستمر عشرة أيام، سنكون خلالها في ضيافتك.

قلت لنفسني: من عندنا غيرك هنا. فهل سنتحملنا؟

كانت في كلماتها هذه تدق مسامير في قلبه، فقد احمر وجهه على الشاشة. قال مغالباً

مشاعره:

— أرجوك لاتتحدثي بهذا الشكل.

وناموا...

وحين استيقظ يحيى سليم في إطلالة الفجر، أحس هلعاً من تيار برد يتسرب من يمينه. ربما تصور أنه نائم في الشارع. نظر الى يمينه، فرأى الليل قد انقلب الى رمادي ونظر الى يساره، فرآها هناك نائمة مع فريد على سريريه الوحيد محجوبة عنه بالغطاء يلتف حول جسمها. حاول أن ينصت إلى أنفاسها. لم يسمع شيئاً. كانت تغط في نوم عميق، مثل نوم الطفل الذي لا يثقل على قلبه همّ. وفكر بمسامير كلماتها في المساء، وأحس بتوهجها في قلبه. وهمس مع نفسه: إذن، لم تأت للمصالحة، ولا لتجديد ما انقطع. وشعر الرجل بمغص في معدته. لأن الممثل وضع يده على بطنه، نهض، وانسل الى المطبخ، وغسل وجهه هناك. ووقف عند الشباك، حيث كان المسجل مايزال على الافريز، وفيه كاسيت فاضل عواد. ولكن لا بد أنه بدا له قديماً، وقديماً جداً يخص مرحلة غابرة من حياته العاطفية. لأنه شعر بالاهابة وخيبة الأمل. وظل ينظر من الشباك الى الدنيا تحته، واللون الرمادي يذوب، ويمتصه ندى الصباح، فيكشف عن قامات الأشجار، وأضلاع البنائيات، وهياكل السيارات، وخطوط الترام، وأعمدة المصابيح وأسلاك عربات الباص الكهربائية، لقطعة سينائية بارعة! والناس أيضاً، بدأوا يخرجون من بيوتهم، ويدبون بأرجل قصيرة الى أماكن عملهم. وهكذا، هي الحياة، يابني، تسير أبداً، لاتتحفل بمأساة،

ولامبوت أمل، وإلا لما سميت حياة. وهذا هو الفرق بينها وبين الموت. الحياة حركة، والموت توقف. ولهذا تكون الحياة عزيزة، وحلوة، ويجب أن يكافح الانسان من أجلها، من أجل حياته، ومن أجل حياة الآخرين، مثلما كافح البروفسور كوزين من أجل حياتك، ومنحها لك، ووضعها دينا في أعناقنا، لنردها اليك كاملة غير منقوصة، تستطيع أن تمارس فيها كل أنواع النشاط الممنوح لبني البشر، وحتى ذلك الذي نسب خطأ، أو نسبه الانسان خطأ الى الأرياب.

بينما كان ممثل بطل الفيلم يحيى سليم يفكر أحس بحركة وراءه. التفت، فرأى الطفل يحتضن قائمة الباب، في لباس النوم، ويخاف أن يدخل. ناداه:  
— تعال، فريد، تعال.

امتنع الطفل لحظات، قبل أن يدخل متهيباً شاحطاً بقدميه. لم يكن للرجل مايسليه. لالعة، ولاشوكولاته أخرى. فحمله من تحت أبطيه، ووضع على افريز الشباك، الى جانب المسجل، وتركه يعبث بكل مفاتيحه، وينقر على زجاجه. ثم انتصب الطفل، واستند بكفيه المبسوطتين على زجاج النافذة، وقرب أنفه منه.  
— عمو؟

جفل الرجل من هذه الكلمة الغريبة، ارتعد كالملدوغ، ولكنه تمالك نفسه، وقال بعد صمت ذاهل:

- نعم، يا ابن الأخ؟
- الكشك هناك لبيع الدوندرمة؟
- نعم، وسأشتري لك اسكيمو، حين يفتح.
- وماذا هناك؟
- تلك القبة الفضية؟ سيرك جديد. أحب مشاهدة السيرك؟
- نعم، عمو.
- لطيف، ولكن لماذا تسميني عمو؟
- قالها الممثل في ضيق شديد، وتلفت خوفاً من أن تكون زوجته السابقة قد سمعته.
- لأن كل الرجال ماعدا أبي أعمام.
- جراه الرجل فقال:
- طيب، وأين أبوك؟
- بعيد، بعيد ...
- ومد الطفل ذراعيه مرتين.

— ألم تره؟

— لا .

— لاتبح أن تراه؟

— لأأدرى .

وأحس الممثل بجفاف في حلقه ، لأنه تلمض ، وقد يكون قد التهب . ولابد أنه شعر بأن يبدأ ظالمة تمتد للتنتزع ابنه منه . قرب يحيى سليم الطفل منه ، ولثم الثوب عند أعلى الصدر . وشم رائحة جسده الغض . ولم يبد على الطفل أنه خاف ولا أتى بحركة رافضة . وفي ضوء الصباح الباهر الذي كان يملأ الشاشة تأمل يحيى وجه ابنه . الجبين أملس ناصع تزيد من نصاعته خصلات شعر مشبع ، من الداخل ، بلون الحناء بدا افتتح من الليلة البارحة ، حيث كان النور قليلاً ، وحتى العينان ( التقط المخرج لقطة للوجه ملأت الشاشة كلها ) حتى العينان بدتا افتتح لونا ، وأقرب الى أن تكونا رماديتين داكنتين ، ذاتي حلقتين فاتحتين ، تلمعان بريق هادىء جرى . والأنف مكور قصير ، وعلى الخد الأيسر ، إلى الأسفل ، شامة بدت غريبة في وجه غض ، في مثل هذه السن . طوّق الطفل رقبة يحيى ، وتعلق به ، وانتشى يحيى نشوة لاتضارعها كل أملاك الدنيا ، وهم أن يرقص طرباً ، لولاً أن سمع حركة في الرواق ولابد أنه شم رائحة أخرى أليفة تقبل عليه مثل طيف . التفت فرأى زوجته السابقة تدخل المطبخ في ثوبها البيتي المخطط بالأزرق الفاتح . ولابد من أن يحيى شعر ، وهي تقرئه تحية الصباح ، وتقبل الطفل ، بحضورها الجسدي والروحي قوياً صاعقاً ، وكأنما لم تفارقه تلك السنوات الممطوطة ، قالت الأم للطفل :

— تعال نغتسل ، وعمو يحيى سييء لنا الفطور . إنه أحسن عم لك في الدنيا .

وغمرته بعينها . وقادت الطفل من يده . ومن خلال الدهول الذهني الذي ظهر على وجه الممثل من تلك الغمزة للمرّة ، من خلال تلك الطعنة الباردة التي وجهتها اليه زوجته السابقة في تلك اللحظة المضغوطة من الزمن والتي تعادل حياة تعيسة كاملة ، فأحس وكأنه واقف أمام هوة سحيقة تفصل بين عمرتين ، حياتين ، ولاجمال الآن لعبورها أبداً . هذا ماتصورته حين شاهدت الفيلم ستدق عنقه ، ولايعبرها . وقال البطل لنفسه ، وهو يملأ سخان الشاي بلماء : « إذن ، هي التي قالت له أنه عمك وليس أباك؟ عن قصد وتصميم ... » وكّر على أسنانه ، ولابد أنه قرر بكل مافيه من طاقة ، أن يسترده منها ، أن يعيد ماأفسد اصطناعياً . خرج يحيى سليم من حالة التمزق ، حين سمع المرأة تصرخ بالطفل ، ورن الصوت في الحمام ، وفي طبلة أذنه ، ربما . فتح البطل الثلاثجة ، وأخرج كل مافيه من جبنة وبيض وزبدة ، وحمل سخان الماء ، وهم أن يضعه على عين الغاز ، إلا أنه تذكر نسيانه اشعال النار في مساء البارحة ، فابتسم ، وسرى ذلك عنه ، وبدا المرح على وجهه . أشعل عيني الغاز الاثنتين ، وطاف في المطبخ . وكان ولابد أنه تذكر

ذكريات حلوة قريبة الى قلبه، حين كان الصفاء يملأ حياته. لأن الابتسامه عرضت على الشاشه، ولكنه هز رأسه ربما ليطرد ذكريات الماضي، وعاد الى حاضره. ولما فرغ من إعداد الفطور، ذهب اليها فرآها واقفة أمام رفوف الكتب في كامل ملابسها.

— الفطور جاهز.

— ونحن جاهزان أيضاً.

— هل أجلبه الى هنا؟

— لاسناًكل في المطبخ. صحيح، فريد؟

وعلى الفطور سألته:

— كيف نمت؟

— لأبأس.

— ألم تؤذ ضلوعك صلابه الأرض؟

— نمت، ولم أشعر بشيء. وأنت كيف نمت؟

— كالميتة. لم أشعر بفريد حين نهض. فتحت عيني، فرأيت نفسي في حجرة غريبة

وسرير غريب. رفعت جسمي على كوعي، ورأيت فراشك على الأرض. مسكين، يحيى، سنتعبك.

— لانتقولي مثل هذه الأقوال.

— أنت طيب، يا يحيى.

ونظر الى عينيها الشبيهتين بعيني قطه متوحشة، ولكنها أليفة جداً، وقريبة الى النفس. ود

لو يداعبها رغم خشونة كلامها.

وعند انتهاء الفطور، سألته:

— كم الساعة الآن يا يحيى.

— العاشرة.

— آه، علي أن أذهب. اسمع، يا يحيى، هل ممكن أن اترك فريد معك، أثناء انعقاد

المؤتمر؟

— بكل سرور.

صاح فريد:

— لا، ياماما، أنا أيضاً أريد أن أخرج الى الشارع.

— ستخرج مع عمو يحيى، أليس كذلك، يا يحيى؟

وضع يحيى يده على يد الطفل، وقال:

— سأخذك الى المنتزه، الى ملعب اللونارباك. ألا تريد؟

— أريد ، أريد ، والسيرك ؟

— في المساء سأخذك الى السيرك أيضاً ، ففز الطفل على مقعده . فأضاف يحيى سليم :

— سأخذك الى كل مكان ، طوال المؤتمر ، وبعد المؤتمر إذا شئت .

ونظر الى زوجته نظرة ذات معنى ، فنكست رأسها . وبلغ ريقه لأنه شعر بغصة مما قاله ، ومارأى . إذن ، جعلت من بيته نقطة توقف ... ثم سترحل مع ابنها ... مع السلامة ، يا يحيى ... الطيب ! هكذا كان مخرج الفيلم يريد أن يقول .

وصمت الرجل ، والد الطفل الطريح الفراش ، صمت مبهوراً ، كمن من حالة الهذيان ، مأخوذاً بما جرى على لسانه ، وكأن شخصاً آخر كان يستخدمه . هل معقول أن يقص على ابنه مثل هذه الأشياء التي لا تقال حتى للكبار ؟ كان كمن يناجي نفسه ، أو كمن يقص حلماً كابوسياً . وأسف على ما بدر منه . كان يحيى سليم صديقاً قديماً له . وكانت لهذا الصديق قصة مشابهة لقصة الفيلم الذي ابتكره . وكان الرجل يعي حالة صديقه ، ويعيشها ، ويتمثلها ، فدا كالمحمول في لجة حالة شعورية فياضة تدفقت هذياناً على لسانه ، حتى نسى نفسه ، والردهة وابنه المريض ، وعاش زمناً آخر ، عاشه لنفسه ، وبأنانية وجشع ، حتى كاد يعتذر لابنه عما أفلتت من لسانه . نظر إليه فرأى حدقتي عينيه تستديران الى اليمين ، وتشيع حركة في كل وجهه . التفت فرأى البروفسور كوزين بعرجة الخفيف ، ووجهه الممتلئ القوي الملامح ، وشعره الفضي الناعم ، يقبل عليهما مبتسماً ابتسامته العريضة الحفية ، محاطاً بطيبيين وثلاث ممرضات ، قال بالانجليزية قبل أن يصل اليه ، ويمد له يده الطويلة الأصابع — طاب نهارك . ياثابت . منذ دقائق ، وأنا واقف في الزاوية هناك ، أنظر اليك ، وأنت تكلم الطفل ، وهو ملق اليك باله ، وعلى وجهه ملامح تركيز صعب ومجاهد في الوقت ذاته . ماذا كنت تحدثه ؟

تردد ثابت قبل أن يقول :

— عن طفل يشناق الى رعاية والده ... عن حياة عائلة .

— عظيم ، رائع ... أبعث فيه الاهتمام بالدقائق والتفاصيل أعد له الشوق الى الحياة ، دعه يأمل ليتحرك فكره وذكريته ليكونا مملوئين لبالكباثر فقط ، بل بالصغائر أيضاً .

ووضع يده على رأس حسان ، وقال بلغته :

— كيف أنت ، يا حسان ؟

أجابه الطفل بنفس اللغة لاويماً شفتيه بها :

— جيد .

— ارفع يدك اليمنى ...

جاهد حسان ، ورفع يده اليمنى مقوسة ، مرتخية المشط الى الأسفل ، ولاحت على وجهه



الطفل آثار جهد كبير، بينما لم ترتفع اليد إلا بمقدار نصف مسطرة.  
— لأبأس — قال البروفسور — لأبأس... ستتمرن.

وأخذ يخاطب المحيطين به بلغة طبية هامسة، وهو يمسك باليد المعوجة، ويفرد أصابعها، فتبدو كالميتة بين أصابعه الحية الحمراء.

كان هذا الرجل ، ثابت حسين ، يقيم في فندق منذ وصوله لزيارة ابنه . كان يشغل غرفة تطل على النهر ، مقابل مصنع ترسل مداخنه أبخرة ملونة بالرمادي الفاتح والبنفسجي والأسود القاتم . وقد جلس يراقب الأدخنة ترتفع غليظة الى أعماق السماء الواطئة التي ظلت مستتيرة الى ما بعد الثامنة . وفي الأسفل كنيسة صغيرة بلون مزيج بين الأخضر والأبيض والرمادي الفاتح تبدو من بقايا عصور قديمة وسط المعمار الحديث ، والحياة العصرية الصاخبة بمداخن مصانعها ، وأرتال سياراتها ، وقوافل صنادلها المحملة بمجنوع الأشجار والفحم وقوالب الاسمنت . جلس يرقب الليل يهبط غير راغب في تناول العشاء ، رغم أنه كان يشعر بالجوع ومغص في المعدة . يوليوها ويبرمها مثل قطعة قماش مبللة . وكان يحس بالكآبة أيضاً تحميم مثل غيوم سوداء داخل نفسه وتحاصرهما وتحققها . وكان ذهنه مملوءاً بصورة ابنه ممدداً على سريره بلا حراك تقريباً ، ينظر طويلاً ، تلك اليد التي تدلت الى الأسفل كعصفور ميت ، حين أمره البروفسور كوزين أن يرفعها . وستظل هذه اليد شاخصة أمام عينيه الى حين لايدري ، إلى أن تتحرك ذاكرته ، أو بعضها ، حين يملأ الذاكرة بقصص الحياة ، وأشواق الناس . كان الرجل قد وضع هذا الهدف له ، منذ أن جاء لزيارته ، قبل شهر ، ورأى الضباب يكلكل على ذاكرة ابنه ، ويحققها ، فلا يكاد يعرفه ، ولايكاد يعرف الحادثة التي وقعت له في العراق ، وكادت تؤدي بحياته . فظل الرجل يعيش يومه في فراغ ، فدى للساعتين اللتين يقضيهما مع ابنه كل يوم الى جانب سريره ، يقص له أخباراً يؤلفها بنفسه ، أو يخرجها من صندوق ذكرياته مضيئاً لما توابل كان يظن أنها تحرك نبض الحياة في ذهن الصبي المضطرب الذاكرة .

بدأت الأنوار تلوح في أقصى النوافذ الزجاجية العريضة للمصنع الذي يقابله ، وراحت الألوان تعتم وتعتم مع تلاشي الضوء ، وانسحاب النهار الى أصقاع أخرى . والليل بكل قنامه لم يحل بعد . والظهر أنه لايجل إلا في تلك الساعات القليلة التي يقضيها الرجل في نوم بائس بعد الحادية عشرة ، ويغيب فيه حتى يشكه ذلك المخرز اللعين فيستيقظ في أعماق الليل ، في ساعة كان يجزرها دائماً بفرق ضئيل ، دقائق معدودات . كان إذا شكه ذلك المخرز ، وتكلم صوت عرييد مفاجيء في محه يقول لنفسه : إنها الساعة الثانية والنصف أو الثالثة إلا ربعاً ، ثم ينظر إلى طرة الساعة ، وإذا بالفرق لايتجاوز تلك الدقائق المعدودات . فيحس برصاصية الجسم ، وتفكك

مفاصله ، وثقل جفنيه ، وبيدأ ذلك الطائر الأعمى ، خفاش ليالي السهاد ، داخل جمجمته بحوم ، ويرتطم بأي جزء مما يغلف حياته من ذكريات ، وبيدأ برؤية دهاليز رمادية وشوارع قائمة الزوايا ، وظليلات مخازن ، وبيوت يعرفها أو لايعرفها وأناس بسحنات مزورة لاناس يعرفهم ، يقومون بأفعال معقولة وغير معقولة ، ويضيق بهذه الصور المحمومة الفالته ، وبيدأ الضجر من هجران النوم يتسرب اليه ، ويستيقظ تماماً . عندئذ تبدأ ذكريات أكثر واقعية تطفو على سطح ذاكرته . تأتي لاعلى التعيين ، ويربطها خيط غير مرئي بتلك الصور المتنافرة التي رآها قبل دقائق ثم تستقيم الذكرى ، وتصير أكثر حياة ومعقولة ... عندئذ يبدأ باستعادة شريط حياته .

الليلة أيضاً ترك النهار يتلاشى خارج نافذته التي كان يخاف أن يسدل ستائرهما ، مثل صديق طفولته يحيى سليم ، لأنه كان يخاف الظلام واللبل وكل ما هو أسود ، وغفا تلك الاغفاء الخاطفة ، حتى أيقظه الخرز اللقيم في الساعة الثالثة وخمس دقائق ، وتلملم الطائر السجين داخل جمجمته ، راح الخفاش الأعمى يهيم في أودية الذكرى . ولأنه قابل البروفسور كوزين ، وهو نادراً مايقابله ، خوفاً من إزعاجه ، راح شريط ذاكرته ينفك متراجعاً الى اللحظة التي قابله في بغداد . وكان ابنه طريح الفراش ، لايارحه . وكانت عملية جراحية قد أجريت على رأسه ، وأدخل الدماغ الى مكانه ، بعد أن أخرجت منه شظايا الزجاج الدقيقة ، وخيط . ولكن الحركة لم تعد للأطراف . كان وقتاً قاسياً جداً ، وكانت المعركة تجري رهيبه بين جحافل الموت ، وأنصار الحياة ، وكان الرجل لايستطيع أن يغفو لحظة واحدة إلا قبيل الفجر ، حين تبدأ العاصفير تزقزق في الخارج . ومن شدة أعيائه وسهره طوال الليل كان يغفو على زرققتها تضرب كالمطارق الصغيرة في جمجمته السليمة — كان يود لو تكون جمجمته هو المفلوعة — وفي بارقة أمل جديدة تعرف على البروفسور كوزين في بغداد ، أثناء زيارته ضمن وفد طبي ، عن طريق صديق طبيب كان قد بذل جهده لاجراء العملية في مستشفى الجملة العصبية . وكان البروفسور كوزين في إحدى زيارته لمدينة الطب قد تعرف على حالة حسان ، واهتم بها ، وهذا مابدأ من تلك النظرة الساهمة في عينيه الرماديتين ، قبل أن ينطق فيما بعد بشجاعة : « أعاهد فقط أن أحافظ على حياته ، ولأعدك الآن بغير هذا » . وكان ثابت حسين لايرجو غير هذا ، أن يرى ابنه بين الأحياء . وتذكر الرجل كيف خرج من تلك البناية البنية ذات الطابقين ، المطلة على نهر دجلة ، في يوم شتائي مشمس من أيام بغداد الشتائية الدافئة ، حيث تلوح الأشياء في أبعادها الحقيقية ، مستضاءة من الداخل بلونها الخاص ، حادة الزوايا ، صلبة ، متاسكة ، والهواء الدافئ المضمخ برطوبة النهر ، وعبق فواكة الشتاء ، وزفر السمك الحمي والترية البنية الهشة ، ورأى الأشجار ترقص فرحة ، والسابلة مرحين ورسنين أكثر من اللازم ، والحانات والمقاهي وقورة ، وكأنها بيوت عبادة . وكان يحدق في وجه كل طفل يمر به ، من أولئك الذين تأخروا عن الدراسة لسبب ما ، مثل حسان ، ومن أولئك الذين لم يعرفوا المدرسة بعد . وكان يود لو يهتف لهم : ان لي طفلاً مثلكم ، وهو الآن

معلق بين الموت والحياة، ولكنه سينجو، وتكتب له الحياة، وفي المستقبل القريب أو البعيد، لست أدري، سيسير في الشوارع مثلكم، ويتنسم هواء النهر، ويأخذ باقة خس من تلك العربة الواقعة تحت شجرة عملاقة، ويقضم أوراقها الريانة، ويمارس كل شيء مباح للانسان الاعتيادي. وزفر الآن — وهو مستلق على فراشه في الفندق — وقال لنفسه: تحقق وعد البروفسور كوزين. جاء به مقعداً، بل ولايوازن نفسه إذا وقف، ولايذكر أي شيء تقريباً من حياته الماضية، وحتى أبوه الذي جاء به كان ينظر اليه نظرات متسائلة مستفسرة، وكأنه يعده من أولئك الغرباء الذين يعينونه في اخراجه من محنته. وقال له البروفسور: عد الى بلادك الآن، وغب ثلاثة أشهر واترك الصبي لنفسه، حتى يداري جروحه، ويعدها تعال، فقد تنفع مساعدتك له ... وها قد جاء.

تقلب الرجل، ونظر الى ساعته في ضوء النافذة الثلاثية المكشوفة. الرابعة والنصف. يارب القدرة، أما أن تجعلني أنا، أو تجعل الصبح يأتي قبل الأوان. ولم تتحقق أية من المعجزتين ... ظل النور الحليبي يشف ويشف حتى طلعت مداخن المصنع أمامه، وبنائته والرصيف الضيق أمام البناية، ومرسى الزوارق الصغير المهجور في الجانب الآخر من النهر، وانعطاف النهر نفسه الى يمينه، ووطن النهر الرمادي الكدر مثل سمكة توشك أن تتلعملل. نهض ثابت من فراشه ضجراً وياتساً من إقبال النوم عليه، وحاول، مثل صديقه القديم يحيى سليم أن يربط نفسه بنبض العالم عبر جهاز الراديو الصغير الذي حمله معه من العراق، ولم يعثر إلا على أصوات لايعرف بأية لغة كانت تتكلم. وبموسيقى متحمسة غريبة على حالته النفسية وحشجات وإشارات لاسلكي، وخشخشة. عاف الراديو في ضيق، واستلقى على الفراش ثانية. وطافت في ذهنه هذه المرة، صورة صديقه القديم يحيى سليم، الذي لايعرف لماذا عن له أن يقص طرفاً من أخباره على ابنه محرفاً ويجعله بطل فيلم سينائي، وكيف تصور أن هذه القصة التافهة التي كثيراً ماتحصل للمغترين يمكن أن توقظ أشواق الحياة في نفس ابنه الهامدة، كيف دارت على لسانه كلمات الكبار ... الجمعة والسائل المحب، والتوق الى جسد امرأة لرجل كانت صولاته وجولاته تنتهي كلها بالفشل. ربما كان ذلك لأنه كان يعرف معاناة يحيى سليم في سبيل الحصول على امرأة دائمة الود له. فلا يجد إلا مشاريع فاشلة. وتذكر مشروع زواجه الفاشل في بغداد، وقصصاً وحكايات مضحكة ومفجعة، طردها من ذهنه، وهو مستلق على فراشه ينظر الى الثريا البيضاء فوقه، وينتظر حلول صباح الآخرين. نظر الى ساعته فوجدتها تشير الى الخامسة والنصف. بدأت بعض الشاحنات في الشارع تحته ترسل ضوءهاها اليه من خلال الزجاج. وصورة يحيى سليم ما تزال تسد عليه أفق تفكيره، وتتقلب وتتغير على رسلها، مشوشة مضطربة، عاتمة، حتى استقرت الى شيء ينتمي الى الطفولة. فابتسم ثابت حسين في سره، إما لأن الساعة في الراديو الداخلي الذي نسي أن يغلقه في الليل قد دقت السادسة معلنة حلول النهار الرسمي، وإما لأنه تذكر تلك الصورة المضحكة الرعناء، يوم أن تشاجر مع يحيى سليم ... كانت

هذه الصورة راسخة في ذهنه، كلما استعاد صفحات من طفولته الباهتة، في ليالي سهاده، صورة فتى نحيل متوسط القامة، له عادة أحوال عينيه عند الغضب، وفي الظروف الحرجة. يقارب بينهما الى حد الافراز تلك صورة يحيى سليم في يفاعته. لم تكن هيئته توحى بأنه معارك: أحديداب خفيف في الظهر، تقوس ملحوظ في الذراعين. وذلك الحول في ساعة الغضب والشدة.

ربما كان يحس بالاهانة من مجرد النظر اليه، فكان يغضب ويتوعد، ولكنه كان يسوف وعيده ضاغظاً على سورة كانت تنبع من أعماق قصوى في نفسه، ربما لشعور في النقص. ولكن سورات الشعور بالنقصية والغضب هذه سرعان ما كانت تتلاشى في تلايف اهتمامات أخرى. وذات مرة، وثابت يذكرها بالتفاصيل، صار يحيى ينفر منه، ويتوعد، ويقول للطلبة سيتعارك معه. وفي هذه المرة فقط لم يسوف يحيى سليم وعيده. في اليوم التالي قيل له أن العراك سيبدأ اليوم، بعد الدروس، وكان اليوم يوم الثلاثاء، ولا دوام بعد الظهر. يتذكر ثابت حسين أن الدرس الأخير كان درساً للأعمال اليدوية، وكان من بين أدواته مقص صغير، يعرف كيف يطويه ليصير « بوكس ». وإن لم يكن يعرف كيف يستعمله في عراك، لأنه لم يتعارك قط. ولكنه في هذه المرة كان مجبراً، لا محيراً، والطلبة يحبون المشاهد المثيرة والمضحكة. فخرجوا وراءهما، وتحلقوا حولهما في رهط كثيف ينتظر معركة ذات نتائج مثيرة للجدل. طلع كل واحد منهما يتبعه نفر من أنصاره المتفرجين على معركة ستكون حامية الوطيس. خلفوا بناية المدرسة وراءهم، ومسقى الماء، وقبل أن يلجوا الى صف ذكابين الحدادين ومصلحي السيارات توقفوا. كان يحيى سليم يسير في جانب من الطريق وثابت حسين في الجانب الآخر. نزل الأول من الرصيف، ونزل الثاني. تقدم هذا، وتقدم ذاك. وعندما كانا على بعد خطوتين رأى ثابت عيني صاحبه تحولان، فعرف أنه في غاية الغضب. كان ماسكاً المقص المطوي بين أصابعه. لم ينطق أحدهما بكلمة. كانا كمصارعين في حلبة مصارعة حية تضيق عليهما شيئاً فشيئاً، ولاترك لأحدهما مجالاً للفرار. رفع يحيى ذراعه المعوجة ليوجه بها ضربة، فزاعجت، ومرت قرب اذن ثابت. كز على أسنانه، وهجم على غريمه، وحاول أن يصل الى أنفه المنتصب، ولكن الأنف الطويل كان بعيداً عن مناله. ضربه على كتفه بالمقص، تلقى ضربة على الترقوة. وجه ضربة الى صدره انغرزت في بطنه. وحصل ضرب طائش عجول غير موفق، بعضه كالرقص في الهواء. ولم ينته الا بعد أن انهك الطرفان، وتوقفا عن القتال من تلقاء أنفسهما، ياساً من محاجزة الأنصار لهما. واسفرت المعركة عن خدوش وكدمات، دون أن يشعر أحدهما أنه اشفى غليله من صاحبه.

والغريب أنهما صارا، بعد هذا الحادث، صديقين قريين!

في المرة التالية لم يكن ثابت حسين موقفاً في سرد الحكايات على ابنه . ظلت عينا الصبي ساهمتين مغلفتين على نفسيهما بلا دفء ولا توق . وكأن الطفل كان يسمع وشوشة آلة أمامه . حاول الرجل أن يبدأ بداية أخرى .

... وفي يوم جميل ، هكذا اليوم الربيعي ، خرج يحيى سليم مع ابنه الذي يسميه . أنت تعرفه ؟ اسمه فريد ، تتذكر ؟ وكانت زوجته السابقة قد خرجت الى المؤتمر وتركته مع طفله العزيز ، فلذة كبده . فخرج معه الى الشارع في غاية الفرح ، مثلما ساخرج أنا معك ذات يوم ميمون . كانت الدنيا ترقص طرباً ، مثل راقصة عجيبة ، أهازيج عسافيرها تملأ الرحاب ، وألوان ثيابها الزاهية ترف مع الشمس رفيف الفراشات . قاده من يده الى الكشك الذي رآه مغلقاً في صباح مجيئه ، واشترى له « اسكيمو » ، وركب الترام ، ذلك القطار الحديدي الذي يسير بين الشوارع ملوناً بالأحمر والأصفر ، ثم ركب باصاً يسير على الكهرياء . وكان الطفل يجلس قرب الشباك يتفرج على الدنيا التي تموج حوله ، ويأكل بقية الأسكيمو . كانت الشمس دافئة الى حد النعاس ، مثل شمس بغداد في الشتاء تماماً . هل تذكر تلك الشمس الذهبية بلون النحاس المجلو في سوق الصفافير ، كيف كانت تدفء جسمك وكأنها أمك تحتضنك ، حين تكون قد طلعت من مدرستك في حي دراغ ، بعد انتهاء الدرس ، وسرت في الخرابة العريضة عند الشطيطة التي يتطاير منها غبار دقيق الذرات ، حلو المذاق ، وأنت تسير في الفراغات بين البيوت والبنيات ، وفي معدتك جوع يتشمم روائح الأطعمة اللذيذة التي طبختها أمك في الصباح . وأنت تتعجل العودة الى البيت ، حين كنت ترمي حقيبتك المدرسية البنية في الرواق ، وتخلع حذاءك دون أن تفك رباطه ، وهي عادة لك كنت أنبهك عليها ، ولكن لانسمع . كنت تضع قدماً على رأس الحذاء ، وتسحبها بالقوة حتى تفلت وتقدفه في ركن الرواق الفارغ تقريباً ثم تفعل ذلك بالقدم الأخرى ، وتسير حافي القدمين الى المطبخ تشمم الروائح ، وتخطف تفاحة أو برتقالة ، وتضعها في فمك وسط صياح أمك لاتأكل ... لاتسد شهيتك . ولكنك كنت تطمننها بأن لك شهية ليلي والذئب . وأنا ، حين أكون هناك ، لأوافق على رأيك لأنك سريع الأكل ، سريع الشبع ، سريع النهوض من المائدة . هل تتذكر ذلك طبعاً تتذكر ، وتتذكر أشياء أخرى ، تلك هي حياتك ولايمكن أن تنساها . وأبوك المسكين يحاول أن يدركك بها ، ويحمل اليك العالم في

ردهتك هذه، ويحاول بقصصه المضحكة المبكية، بذكرياته المعقولة وغير المعقولة أن يجعلك تعيش خارج هذه الردهة. ويحيى سليم الذي أقص عليك قصته لا يختلف كثيراً عن أي صديق قديم مرّ في طريق حياتي. جلس ابنه كما في الفيلم، عند النافذة، مثلما كنت أنت تحب الجلوس في سيارتي الإيطالية القديمة، وتقرب وجهك من النافذة. حتى كنت أخاف عليك أن تفتح الباب وتقع — سكت الرجل دقيقة عاصباً على لسانه، ولكنه بلغ ريقه، وتابع كلامه — ومن أجلك اشتريت باباً جديداً للسيارة، وأصلحت القفل حتى ... حتى ...

وبلع الرجل ريقه مرة أخرى. ان الكلام لا يستقيم له اليوم. ظل يحرق في الفراغ بذهول وقتاً طويلاً، حتى زاغت عيناه، والتقت بحدقتي ابنه المصوبتين نحوه. وقرأ على وجهه استفساراً لجوجاً، قنوطاً أو نفاذ صبر. فأسرع الرجل يقول:

— نعم، نعم ... سارت السيارة بهما الى آخر الجادة العريضة، ونزلا بالقرب من المنتزه، وعبرا الجادة متلازمين. وكان مدخل المنتزه الخلفي أمامهما. وقرب المدخل عربتان لبيع الدوندرمة. نظر الطفل اليهما متلمضاً. قال له أبوه، أو عمه كما سماه في الأول: لا تستعجل، سترى في داخل المنتزه عربات دوندرمة في كل زاوية. انحدرنا على تربة هشة ناعمة، رويت حتى الشبع من ثلوج الشتاء الماضي. وأنت تعرف، يا بني، قصة الثلج هنا، يهبط طوال الشتاء كالمن من السماء ولعلك تتذكر حين راحت الطائرة تهبط بنا قبل شهر، كيف اتكأت على نافذتها المدورة، ورحت تنظر الى الأرض المكسوة بقماش أبيض، ولاتبدو إلا مستطيلات ومربعات الغابات الداكنة يتناثر عليها الثلج كالطحين أو الملح، والسيارات تبدو كالتل تدب على طرق مستقيمة. أنت تذكر كل هذا بالتأكيد، لأنني كنت أنبهك على كل شيء، حتى نبهتك الى بناية كانت تبدو كزرافة ترفع عنقها الى السماء، وقلت لك: هذه هي الجامعة ... تتذكر ...

وانتزع الرجل من ابنه هزة خفيفة من رأسه. — تتذكر، بالتأكيد. طيب، مشياً على تلك التربة الهشة، وكأنهما يمشيان على مطاط. ورأيا الناس صفوفاً جالسين على مساطب، وراء حاجز خفيف. هذه دار للسني، مقابلها مدرسة لتعليم الرقص. ثم انحدرنا على منحدر خفيف محاط بأشجار عملاقة .. الأشجار هناك كالمظلات الخضراء ماثوثة في كل مكان، من مختلف الأحجام. وبعد جولة قصيرة ركبا دولاب الهواء الكبير. والظاهر ان ذلك بطل الفيلم، أقصد يحيى سليم، لم يكن شجاعاً جداً، فحينما كان دولاب الهواء يقف في أعلى نقطة، كان الطفل يرقص على المقعد، ويحقق قلب يحيى سليم رهبة كالثهينة. ومن يدري؟ ربما هذا الرجل لم يتعود على هذه الألعاب الضخمة في الطفولة. وحين كان الدولاب ينحدر كان قلب البطل يغوص في صدره في حين كان الطفل يطبطب على أرض

المقعد فرحاً ونشوة . وكانا يريان رؤوس الأشجار تقبل عليهما ، وتحرك أغصانها وسائد لهما ، والأرض الوديعه تقرب باتزان ، مثل أم هادئة الأعصاب تستقبل بنيتها في الأحضان . وطافا في كل الملاعب ، وكلما اشتدت فرحة الطفل وهياجه كان يحبى يتناسى غوصات قلبه الخافق ، ويستمد الشجاعة من جرأة الطفولة . وانجرف الأب مع أفراح ابنه حتى النهاية . وأخذ شيئاً فشيئاً يشعر بأنه يطير مع ابنه كما يطير الناس في الأحلام . وحين هبطا من دولاب الهواء سالمين قال الطفل :

— عمو ، كنت تشعر بالبرد في الدولاب؟

— لا ، بابن الأبح ، كنت أشعر بالخوف .

ضحك الطفل من عم خائف لاينفع لشيء ، وقال :

— كأنك لم تركب دولاباً عندما كنت طفلاً .

قال له يحبى :

— كانت لنا دولاب . ولكن ليس بهذا الحجم .

قال الطفل وهما يسيران في رصيف منسق بأزاهير من مختلف الألوان :

— وماذا كنت تلعب ، عندما كنت صغيراً؟

— ماذا كنت ألعب . كنت ألعب الكعاب .

— كعاب؟ ماهي الكعاب؟

وصعب على الرجل أن يشرح له ماهي الكعاب ، ولكنه راح يمثل كيف كان يلعب الكعاب ، حين كان صغيراً . احنى ركبته اليمنى ، ودفع رجله اليسرى الى الورا ، ودور شيئاً وهمياً بين سبابه وابهامه ، تماماً كما كان يفعل وهو صغير ، دون أن يخجل من الناس الذين بدأوا ينظرون اليه بغرابة وحب الاستطلاع ، وقذف « الكعب » الخيالي بكل قوة حتى أن يده اصطدمت بأنفه . وضحك الطفل ضحكة رنانة ، والآخرون أيضاً ضحكوا مجاناً . ولم يزعل يحبى ، فتلك فرحة كبيرة أن يسلي ابنه .

استأنس الطفل ، فقال :

— طيب ، وماذا كنتم تلعبون أيضاً :

— كنا نلعب الدعبيل .

— الدعبيل؟ مالدعبيل؟

— كرات صغيرة ملونة ، ومزركشة ، ينيشن عليها الأطفال لتصيب أحداها الأخرى .

فرح الطفل ، وقال :

— لطيف ... وبعد؟

ونسي يحبى ماذا بعد ، ولكنه تذكر في اللحظة الأخيرة ، فقال مسروراً ، وكأنه اكتشف



عملاً بطولياً كان يقوم به في الطفولة :

— وكنا نظير طيارات الورق بذبول تتلوى في الهواء كالأفاعي .

وهكذا ظلا يتطارحان لعب الطفولة ، وقد رأى الرجل وجه الطفل يتألق ألقاً نورانياً ، وكأنه تصور نفسه يلعب لعب أبيه أو عمه . ووصلا الى مطعم على ضفة البركة ، فرأيا البط أو الوز يعوم حول خنين من الخشب وسط البركة . وقال له : ماذا تحب أن تأكل ؟ قال الولد : دوندرمة . قال له : الدوندرمة فيما بعد . يجب أن تأكل أولاً لتسند معدتك هذه . وطيطب على بطنه . واختار له ألد مايتصوره من الطعام ، وأكثره تنوعاً . ولم ينس المشهيات . وجلسا ينتظران الطعام . قال الطفل فجأة : أريد أن العب دعبل . قال له : سأشتري لك حفنة منه ، سأشتري من بغداد ، إذا كان مايزال موجوداً هناك . ولكن واياك أن تحسبه حلوى فتضعه في فمك ، كما فعلت أنا مرة ، وكدت أختنق بدعبله وقال :

— وأستطيع أن أصنع لك طيارة ورق ، فيما اذا قبلت أن تبقى معي ، وأطيرها لك في العرصة خلف البيت ، وأضعها في يدك . قال الطفل : كيف ستطير بها . قال : لا أطير بها ، بل أطيرها في الهواء . امسكها بيدي من خيطها ، واركض بها على عكس الريح ، وازيد طول الخيط شيئاً فشيئاً فتزداد ارتفاعاً في الهواء حتى تصل الى نقطة تستقر فيها تقريباً . وعند ذلك أعطيك الخيط . اتفقنا . وجاء الأكل ، وانغمسا فيه .

وسمعا صوتا وراءهما ينادي باسم حسان . التفت الرجل فرأى ممرضة مقبلة عليهما من الباب المفتوح . جاءت مشرقة الوجهة بابتسامة ، صبح ، فتاة في عمر الزهور ، منورة البشرة بياضاً يشف عن حمرة الصبا ، لامعة العينين . وبعد سلام خاطف تناولت يد حسان ، وقالت مخاطبة الرجل :

— سأخذ حسان الآن للنزهة . مارأيك ، يا حسان ؟ سنتزه الآن في ردهة التمارين الرياضية الطبية ، وبعد ذلك سنخرج في نزهة في حديقة المستشفى ، وبعد ذلك في الشارع . قال الرجل :

— خذيه في نزهة في متنزه ... انه يعرف الآن كيف يتجول في ارجائه ... سيدلك بنفسه على الدروب والألعاب . صحيح ، حسان ؟ وبرت علينا حسان بريق حبيس . وعندما خرج الرجل الى الشارع رأى ، في أفق خياله ، حسان بقامته الطويلة يسير بين الناس متأبطاً ذراع الممرضة الحسنة .

هذه المدينة الحجرية جادة أكثر من اللازم، ومستقيمة أكثر من اللازم. صممت لاناس يكون البيت مأواهم الأول والأخير، بعد عمل يوم طويل. ولأنه شرقي تعود أن يقضي شطراً من استراحته خارج البيت، تعود الرفاق والمقهى والحانة والسير في الدروب الضيقة وحلزونيّات الحياة العلية والسرية، فقد كان يحس بشيء يفتقده في هذه المدينة المغلقة المكشوفة، ولاسيما وأنه في حالته العاطفية الراهنة، والمختصرة الى تلك السويغات التي يقضيها الى جانب سرير ابنه. كان يحتاج الى ما يستند اليه، ويبدد قتام وحدته. الشوارع عريضة، والبيوت عالية، مكعبات ومستطيلات من الحجارة والاسمنت والزجاج، والفراغات هائلة، والمسافات جبارة يتيه فيها الانسان الوحيد، إذا لم يكن له دور في هذا الزحام الهائل العجول الراكض الى غايات شتى. يحس بالضآلة وانعدام الوزن. فالناس هنا لهم افراحهم الجماعية، ومتعمهم الجماعية، واحزانهم الجماعية. ولأن له مشكلته الخاصة غير المرتبطة بأي سبب بمشاكل الآخرين وقضاياهم، فقد كان يحس بالانفصام، مثل قشة محمولة في تيار من المياه غير المرئية التي تحرك الناس في الشوارع، وتجعلهم يتحركون بهذه السرعة، أو يتجمعون على أبواب المخازن والمقاهي والمطاعم التي هي نفسها، من حيث المساحة والزحام، جزء من هذه المدينة المغلقة الماردة الأبعاد. كان وهو يسير في شوارعها، يحس وكأنه ثملة تدب على ظهر فيل راكض. ولكنه وجد سلوى في جمع شتات صورة قديمة عنها، يوم جاء اليها وعاش فيها لستة أشهر متدرّباً في أحد معاهدها، قبل سنين عديدة. ذهب الى تلك البناية الحمراء الجهماء التي تعلم فيها تهجي الكلمات، وبحث عن المطعم الطلابي الذي كان يأكل فيه. جدد من الداخل، واستبدلت المناضد والكراسي بأخرى لامعة من البلاستيك. بحث عن المخازن التي كان يشتري منها طعامه، وأطل على مخزن بيع السمك الذي كانت تعمل فيه بائعة رائعة الجمال. لم يجدها. وضحك من نفسه، وكأنه، بعد هذه السنين الطويلة، سيجدها كما خلفها بوجهها الغض، وعينيها الغمازتين. وركب الترام بمقاعده الشبيهة بمقاعد مقهى متنقل في الهواء الطلق. رأى أجزاء كثيرة من العالم القديم تمتد أمامه مزروجة بأشياء جديدة. وقف أمام بناية سامقة تزين بناية الشارع الرئيسي وحاول أن يتذكر هل كانت هذه البناية من قبل. ولم يتذكر، وقال لنفسه: ربما هي في مكان تلك البناية العجوز القوية التي رأى كرات الهدم تعمل فيها. وكان يمر بها صباح مساء، ويعرف كل حوائتها، وفي أحد الأيام رآها خاوية، أفرغت، وجردت من لافتاتها ونزعت أطر الشبائيك وبعد ذلك رأى

كرات حديدية ضخمة تضربها ضرباً مقصوداً، وتحيلها الى قطع من الحجارة الصلدة. وقف يتفرج على تلك الآلة الجهنمية الهائلة تقبل من بعيد، وترتطم بالجدار لتقلع جزءاً صغيراً منه. كانت البناية ماتزال قوية، ولا تريد أن تستسلم للهدم. كانت تريد أن تعيش. كانت تصارع وتشبث بالحياة مثل انسان حي. ولماذا لاتكون حية وقد تشبعت جدرانها بأنفاس انسانية طوال قرن من الزمن، ربما، شهدت أناساً يولدون وأناساً ينقلون الى مثواهم الأخير. ولربما رأيت مشاهد حلوة، وأسراً من الحياة الانسانية تعز عن الوصف، وتريد أن تحتفظ بكل ماشهدته. تذكر ثابت حسين انه وقف آنذاك يرى تلك العملية الخفيفة، الجريئة، عملية الهدم، ويقول لنفسه: آه، ما أقساها! والآن، وهو يشهد هذه البناية السابقة يقول لنفسه: ليس المهم أن تعرف كيف تهدم وبأي شيء تهدم، ولكن المهم أن تعرف كيف تبني وماذا ستبني في مكانه. وابتسم ثابت حسين لنفسه، ومد بصره في امتداد الشارع أمامه، وتحول ابتسامه الى دغدغة فرح مقبور. ربما تذكر تلك الصبوات، الشبيهة بصبوات صديقه يحيى سليم في هذا الشارع العتيد، وحماقاته الأولى، وتدقق الى ذاكرته قوله الشرير: الوحدة وسط محيط من الناس تجعل الانسان يدمر نفسه ليغيب الآخرون عنه. ولم يجد ثابت حسين الآن مايرر هذه الحكمة القاتلة. صحيح أنه يشعر بالوحشة والوحدة الآن، والتدمير أمر في ذاكرته كعملية استئصال مؤلمة، إلا أنه كان يتلقى ضربات أكتاف الناس في هذا الزحام الهائل بالفة ودية. جرجر نفسه، بعد تعب التجوال، وبم صوب ذلك المقهى الذي كان يعرفه، أيام زمان، حيث تجتمع فلول المغتربين ليأكلوا، ولكنهم، في الحقيقة، ليحتسوا الخمرة. صعد الدرج الرخامي، واستقبله البار بطاولاته المستديرة السوداء. لم يجد أحداً في قسميه الشرقي والغربي. صعد درجاً آخر الى قاعة مطعم هائلة. فلا بد أنهم هناك يحتسون الخمرة تحت حراسة العذارى في سقف المطعم العالي محاطين بأعمدة بنفسجية ضخمة كالمردة. ووجدهم هناك، أو بالأحرى سمع أصواتهم العالية الناشرة. التفت فرأهم. جماعة كبيرة ممن يعرفهم ولا يعرفهم. كان صالح جميل يتوسطهم. ولم يكن يحيى سليم معهم. دنا منهم بخطى متكاسلة تزداد فتوراً كلما اقترب منهم. ولكن قوة غامضة كانت تسيطر على رجله، وتسحبه اليهم. كان أحدهم يقرأ في جريدة، والآخرون يعلقون عليه.

التقط سمعه:

— اذا كنت من شاري الخمرة، فانقص من عمرك عشرة أعوام.

قالت أصوات:

— نقصنا، والأعمار بيد الله.

— وإذا كنت تدخن فنقص من عمرك اثني عشر عاماً.

— وكيف سنستغني عن السيكاارة. الدنيا سيكاارة وكأس طيب، لنفرض نقصناها.

— إذا كنت تسرف في الجنس فنقص من عمرك خمسة أعوام.

- طيب ، نقصناها مضطرين . الجنس بعد الثلاثين متعة لاتعادها متعة .  
 — وإذا كنت ...  
 — ماذا إذا كنت ... كفاية ...  
 تبرع أحدهم ليقول :  
 — اذا كنت خارج الوطن ... فنقص من عمرك ...  
 ارتفعت اصوات :  
 — بالعكس ... بالعكس ...  
 قال آخرون متحفظين :  
 — هذا يتوقف على الوطن ... إذا كان العراق ...  
 قال قارىء الجريدة :  
 — لاتدخلنا في ايراد ومصرف .. ( وأخذ يقرأ في جريدته ) وإذا كنت من المصابين  
 بالأمراض المزمنة ...  
 قاطعه صوت لجوج :  
 — كلنا من ذوي الأمراض المزمنة ... حب الوطن من بعيد ...  
 قال صالح جميل بصوته الناعم :  
 — اواش ! ( كان يكتب في منديل ورقي أمامه ) طلعت لحد الآن مديوناً لله عشرة  
 أعوام .  
 — ليش ، أشكك عمرك ؟  
 — ولد في أزمة الثلاثينات .  
 — لا ، والله ، في بداية الحرب الباردة ...  
 وصاروا يضحكون ، ويضحون ، ويفرعون الكؤوس ، ويحركون رقابهم في الياقات الضيقة  
 لامتلائها ، ووجوههم محمرة لزجة ، وعيونهم محمرة دبقة . ورأوا رجلاً يطل عليهم ، فصمتوا ، وفي  
 الصمت المباغت رفع صالح جميل عينيه المتقلصتين ، بعد أن أزال عنها القذى الوهمي ، وعلى  
 عادته القديمة ، هس وبس .  
 — ها ، هذا ثابت ، أهلاً ، استاذ !  
 ونظرت اليه عينون مختلفة التعابير مغطاة بضباب الخمرة .  
 قال ثابت :  
 — جمعت أبحث عن يحيى سليم ، لعله يشاطركم المائدة . لم أره منذ أيام عديدة . وقال صالح  
 جميل :

- ولاتبحث عني؟  
قال أحدهم بغل:  
— يحيى سليم ممنوع طيباً من معاقرة الخمرة...  
قال آخر بلهجة أخف عداً:  
— مشغول بجمع الفلوس... ولكنه لن يجمع فلساً واحداً.  
ثنى ثالث:  
— من الشغل الحلال.  
قال رابع:  
— بينما هناك من يقفزون قفز الجبابة...  
صاح الأول في غيظ:  
— قفز الحمالين...  
— عبر الحدود...  
وضرب على حافة المائدة. وجد ثابت حسين نفسه في وضع محرج، أنقذه منه صالح جميل بأن نهض من مكانه، وتحلى عن كرسیه:  
— استرح، تغد معنا...  
ولم يجد ثابت الجو مشجعاً. اقترب منه صالح، وسار به نحو فسحة الدرج، وهو يقول  
في الطريق:  
— يحيى سافر للراحة والاستجمام. لم يعد يحضر مجالسنا...  
— لم يقل لي حين قابلته...  
— عثر على تذكرة عاجلة، فسافر. (وكان يتكلم عن يحيى سليم بود) قال:  
— للمم نفسه، وانقطع عنا... تفضل أنت، اقعد...  
— شكراً، الجو غير مناسب...  
— أعرف.. هل تريد أن نذهب الى مكان آخر؟  
— ولكنك قاعد بين « خرفان ».
- تذكر ثابت مقولته القديمة... وضحك صالح ضحكته المكرجة وغطى فمه في باطن يده، كما كان يفعل من قبل، خوفاً من وجع الأسنان أو تشقق الشفة. قال صالح، بعد أن نظف حنجرته بسعلة:  
— خرفان تختلف عن خرفان.  
قال ثابت بمدارة:  
— المهم ندامى.

قال صالح جميل، وكأنه يشير الى عهد قديمة جداً .

— أوه، ذهبت مجالس الأنايس تلك، هل تتذكرها؟

هز ثابت رأسه، فمضى صالح يقول:

— لم يعد شرب الخمرة لذة، بل استمرار لشيء تعودت عليه، وإذا انقطعت عنه شعرت

بفراغ هائل... ماذا تفعل بهذه الدنيا الناشفة، إذا لم ترطبها بشيء؟ الروح تخبث أو تجف هموم

قديمة بلهجة جديدة. قال ثابت:

— لكل عمر مطالبه .

— والنفس الامارة بالسوء؟

— الارادة، الارادة، يابو مدين...

وضحكا، وتذكرا الماضي القديم، حين جاء بو مدين هنا، في أعقاب ٦٧. استقبله

الطلبة العرب والمغتربون في المطار بهتاف: « الحرب، الحرب، يابو مدين ». وظل هذا الشعار

راسخاً في أذهانهم، يتلون حسب المطالب، والحالة النفسية، وتصاخ منه تخریجات متنوعة.

استحسنته صالح، بولعه القديم بالأغراء، على الذهاب الى مكان آخر. لقد كان ملولاً.

— لنذهب الى رسامنا مظهر... أنت لم تره حتى الآن. صار له مرسوم ومكان محترم.

نأخذ زجاجة، ونذهب اليه، ونتخلص من هؤلاء الخرفان.

كان نداؤه حنوناً متوسلاً يحمل ما كان يحبى سليم يسميه قديماً « النداء المتدبق الى

الموبقات ». وكان يبدو وديعاً مستسلماً للمغريات، ضائعاً يبحث عن قشة. نظر ثابت اليه

فراه يضع يده اليمنى على راحة يده اليسرى، ويتمعن في أصابعه. تذكر ثابت أنها عادة أخرى

قديمة له، تستأسره كلما دخل في دهليز أفكاره. عاد الى إلحاحه:

— ها؟ هل تذهب. سترى صورته أيضاً.

قال ثابت متراجعاً:

— ومن أدراك أنه في البيت؟

— في البيت بالتأكيد. يرسم لوحات حسب الطلب...

وجداه في البيت فعلاً. استقبلهما بترحاب، ولكنه، حين رأى الزجاجة، برقت عيناه

السوداوان، وقال لصالح:

— الله يلعنك. ورأني شغل...

— لا تشرب أنت...

ضحك مظهر وقال:

— لطيف أن تكون لنا هذه المناعة. نرى الآخرين يشربون، ونحن نجلس بهدوء أعصاب.

وضحك مرة أخرى. كان المرسم غرفة مربعة الشكل، تغطي اللوحات جدارين منها، وفي الضلع الآخر مخدع فيه سرير. راح ثابت يحدق في لوحات تسودها الألوان الباردة. الرمادي والأخضر الشاحب، والأزرق الكدر. وتخيل إليه أنه يدخل عالماً دهليزياً يختلف كلياً عن جو المرسم الأنيق، المرتب بذوق، والمترع بالضوء، والمترف الى حد كبير. كانت عذراء ميكائيل انجيلو مرسومة عارية بلون رمادي، على هيئة امرأة من زماننا، خلف قضبان كقضبان السجن تحترق ثديها المتدليين. قال الرسام:

— ها؟ أراك تحدق بفرع؟

كان يصف الأفداح على المائدة الصغيرة المكونة على ضلع من الجدار الفاصل بين ركن النوم والباب. قال ثابت:

— مخيفة ومأساوية.

— هذه حياتنا مخيفة ومأساوية... تشوه حتى الجمال والبراءة...

— ربما لأن عواطفنا حييسة لانجد المجال للتعبير عنها!

— كل شيء حبيس في هذا العالم — قال الرسام، وكأنه يلقي موعظة — انظر إليها. انها وراء قضبان. محروسة من آخرين لاتحبهم. وهم أيضاً لايجوبونها. ولكنها — ككل شيء جميل ونادر — مورد للريح. وانها تحت حراستهم. والابتسامه؟ هل ترى الابتسامه؟ انها خداع. الجيوكندة لاتبتسم، لأنها تشعر بأنها سجينه ومستغلة تباع لقاء أجور زهيدة، كأية مومس في المبغي العام الذي يريد الآخرون أن يحولوا عالمنا اليه.

كان يتكلم بحماس وبقدرة على الفات النظر الى مغزى لوحاته. وكانت هناك لوحة أخرى كبيرة تمثل امرأة رسم جسدها البغي الفتى باللون البرنزي الكدر، مطروحة قرب شجرة مقطوعة، وقد خرجت من ثديها وبطنها أغصان رمادية عارية كهروق من الحديد أو الاسمنت. قال ثابت مسترسلاً مع تفسيراته:

— جمال آخر حبيس.

— بل قتيل... انظر الى هذا الجسد الريان المترع بالدم الحار. أنه مجندل سميت هذه اللوحة « الغابة القتيلة »... كل عناصر الجمال تنتهك.

كان هدوء أعصابه لاينسجم مع مايقول من متفجرات. كان يبدو بارداً لأبالياً. يعامل رسومه كطيور في أقفاص لاتخرج للهواء الطلق. سأله ثابت:

— ماذا تريد أن تقول من هذا كله؟

— هذه قناعاتي مسطرة أمامك...

وكانت غابة قناعاته تتحلزن على الجدران، ويصعب فهمها. ولكن هل من الممكن أن

تعرف فناعات الفنان بسهولة، كما تعرف أن البيض من الدجاجة؟ وكان هناك، بالفعل، بيض كثير، مفقوس وغير مفقوس. وكانت هناك قواقع مختلفة الأشكال، نتوءات وألوان لها ظلال صلبة يمكن أن تلمس باليد. وكانت هناك امرأة عارية جالسة على الأرض محتضنة ركبتيها بذراعيها. وهي تنظر الى أمام. وكانت هناك قاطرة قديمة الطراز كتب عليها رقم ١٣، ووضعت على قماشة بيضاء تحتها سكين. سأله ثابت عنها، فقال باقتضاب: انها الرجيل، الكفن. ثم سأله عن النساء المتكررات فقال باهام:

— المرأة شيء حقيقي غرز مخالبه في أعماق الرجل.

ثم راح يشرح بعبارات مقتضبة:

— وتساءلني عن القوقعة... انها رمز الانغلاق الذاتي. الوجود. العزلة بمعناها الذاتي، وسط صحب الحياة الكامل حولك. الاغتراب! لكل قوقعته الخاصة يلجأ اليها في أيام الحزن أو الضيق، بعيداً عن الآخرين.

ولم يفهم ثابت الكثير من تلميحاته. فخرج منه مثقل النفس، وبحالة بوهيمية هالعة. ولكن كان يصعب عليه أن يذرع الشوارع بلا هدى. فعاد الى فندقه في سعي حثيث الى أن يخلو الى نفسه. قوقعة دائقة فيها جهاز تلفزيون، وتلفون صامت إلا إذا دق خطأ. جلس على الكرسي الأحمر الدوار، وأداره الى النافذة، وواجه بناية المصنع ذي المداخن العشر، والكنيسة، والنهر، وسير السيارات كالسلاحف المرعوبة، هي الأخرى قواقع ملونة. وكأن رأسه غير صاف، فأغمض عينيه، وترك نفسه يحمل من على المقعد في دوامات الأثير داخل رأسه. وطافت أمام خياله قواقع وبيض مفقوس وغير مفقوس، ونساء عاريات، ومصروعات وداميات، وقطارات منطلقة الى أقصى سرعتها الى حيث تترويع الظلمة.

في تلك الليلة حلم بأحلام مزعجة مليئة بالقواقع والبيض المفقوس. وفي وسط الليل، قبل أن يستيقظ استيقاظه المفروض، تحولت القواقع الى سراطين تتراكم في الشارع تحته، وتحول البيض الى جماجم مطروحة على الأرض، مدماة ومفلووعة، لمح من بينها جمجمة ابنه حسان. هب فرعاً، وأحس بالدم يثور في قفاه، ويطن طنيناً مقشعراً قرب أذنه. انتقل من السرير الى الكرسي، ماسكاً رأسه بين يديه. استمر الطنين يهزج في طبلة أذنه بذبذبات معدنية متسارعة. ارتعب. وتراءى له الموت رهيباً في هذه الحجرية البعيدة المغلقة من الداخل، وتصور بشاعة مثل هذا الموت، وبأنه على سرير المرض في انتظار مجيئه في اليوم التالي، وزوجته متلهفة لسماع أخبار ابنها، ومشاريعه كلها ناقصة لم يتم منها مشروع واحد، فزع، وانتفض على الألم الذي يطوق رقبته من الخلف، صاح بصوت غير مسموع: لا، لن أموت. ولن اترك كل هذه الأشياء الناقصة. سار في الحجرية مغالباً الألم، مديراً رقبته ميئاً ويساراً، مشمراً ذراعه في الهواء، واتجه بكل روحه الى



العالم خارج تلك النافذة المضلعة . كل الأشياء في الخارج حقيقية وثابتة ، وليس عليها أي أثر لموت مقبل . المصنع بشعاره العريض : « المجد للعمل » والنهر يدفع مياهه بصمت وصبر ولابالاة . والكنيسة الرمادية الصغيرة تلوح بيضاء كالبيضة ... أوه — قال لنفسه — لا تتذكر البيضة ، قل كالدرة ، كالقلعة تتحدى الزمن . كل شيء حقيقي ورسين ، لا يقبل الجدل . حاول أن يفتح النافذة ، ولكنه لم يعرف كيف يفتحها . تذكر أنه ينسى دائماً أن يسأل المسؤولة عن الطابق كيف يمكن أن تفتح النافذة ... سيسألها غداً . ومدته ذلك الشعور بالارتباط بالغد ، وبأناس الغد ، وبابنه وعائلته والعالم . وأحس بأن رقبته تتحرر من آخر براثن الأم . استلقى ثانية على السرير ، ووضع يديه المتشابكتين تحت رأسه ، وقرس في السقف مستيقظ الحواس تماماً . ثم شعر بخسارة عظيمة لأن الوقت ليل ، والليل معد للنوم . اغمض عينيه مستسلماً للرقاد بكل جوارحه . ولكنه اغتاض ، حين لم يقبل عليه النوم ، قال لنفسه : إن فترة اليقظة المفروضة جاءت هذه الليلة مبكرة . وسخط على نفسه التي لا تستجيب له ... أعصابه أهدأؤه ... كان يقول ذلك لنفسه دائماً ... تلك الشبكة المبتوثة في كل جسده تتمرد عليه في ساعة الضيق ، حتى يتعنى أن يستل كل عصب في جسده ، مثلما تستل كل سلة مفروسة في لحم سمكة . اغمض عينيه ثالثة ورابعة ، وحاول أن لا يفكر في شيء . حاول أن يجمد ، ويفرغ نفسه من كل احساس . ولكن الصور كانت تتوافد على فكره كالنعاك المنحوسة ... قواقع ... بيض مفقوس ... جماجم ... وجهجة ابنه بينها . طردها من ذهنه . حاول أن يفكر في نساء عاريات كتلك المرأة التي رآها في لوحة الرسام عارية مطروحة بلون النحاس ... بلون الدم ... بلون الجماجم المفلوعة ... وتراءت له الجمجمة إياها مرة أخرى . قال لنفسه : لو كنت قد رأيتها بالفعل لجننت . كان يفكر بشكل مستقيم ، متيقظ الحواس . لامفر من هذه اليقظة الصارمة . كان قد سمع أخاه يقول لأخته ، وهو يظن أنه لا يسمع : دخلت فرأيت حسناً مرمياً على الأرض في مستشفى الطوارئ . صرخت بهم : هذا الطفل سيموت ، لماذا تركونه مفلوع الجمجمة بهذا الشكل ؟ ورحت وجئت ، ونزلت وصعدت حتى نقلوه الى مستشفى الجملة العصبية . ذهب ثابت الى هناك . سمع الخبر ، فركب سيارة أجرة ، لأن أعصابه لم تكن تتحمل سياقة السيارة . وكانوا يبحثون عن دم من صنف دمه النادر ، كما قالوا له . قال ثابت : خذوا دمي ... امتنعوا ، حين رأوا حالته المضطربة . ولما يتسوا من العثور على الدم المطلوب ، اضطروا الى نقل الدم منه ... وبعد ذلك شعر الأب بدوار ، وانهبير في قواه ... ظل ساعتين ممدداً على السرير حتى استعاد قوته ... والآن أيضاً لم يقبل عليه النوم إلا عند اطلالة الفجر ...

في يوم حزيران فاتر النسمة عاد يحيى سليم من منتجع . كان ثابت حسين قابعاً في حجرته يفكر : لماذا أجلوا اجراء العملية لأبنه ؟ أعل حالته الصحية لاتتحمل العملية ؟ لعل هناك محاذير أخرى ، لعلهم خافوا من فشلها ، لعل ... لعل ... وصار يلج دهاليز الظنون حتى دق

جرس التلفون فرغ السماعه حالاً. كان المتكلم يحيى سليم. واتفقا على موعد، والتقيا في مطعم صغير لأيومه العراقيون... وأين يلتقيان في هذه المدينة الخالية مقاهيها إلا من الطعام والمشروبات الكحولية؟

كان يحيى سليم ملوح البشرة، بل مسوداً. ولربما هذا الانطباع مبعثه شاربه الأسود، والسميك المتدني من الجانبين. وكانت عيناه تتألقان ببريق الراحة، والتقاطيع مشدودة وممتلئة، والأسنان بيضاء. سأله:

— كيف حال ابنك؟

— بتحسن.

— هل خروجه من المستشفى قريب.

— لأظن. قالوا لي سيجرون عملية أخرى على رأسه.

— عملية؟

— لتغطية الدماغ.

سهم يحيى سليم، واستند على المائدة بذراعه الطويلة المعوجة الى الخارج، وزفر زفرة طويلة، وقال كالهامس:

— مصائب! أنا أعرف رجلاً أصيب ابنه في حادثة، فتضررت إحدى كليتيه، واضطروا الى قطعها... تصور صيباً بكلية واحدة.

— نعم... وفي المستشفى التي يرقد فيها حسان حالات تجعل شعر الانسان يشيب.

— وهل يهون ذلك على الانسان المنكوب؟

— لا. المكروه مكروه على أية حال.

وتبادلا النظرات، وكأن كل واحد فسر الجملة تفسيره الخاص. وقرأ كل واحد منهما تأريخ الآخر، واسترجع في ذهنه نبذاً من حياته... في لحظات صمت قصيرة يستطيع العقل البشري أن يقطع مسافات هائلة من الزمن. تنهال الصور وتختفي لتعقبها صور أخرى. الزمن والعقل ينتهم أحدهما الآخر. وفجأة عاد الى ذهن ثابت حسين ماقصه على ابنه عن حكاية الابن الذي لايعرف أباه سأل:

— وأنت... ألم تتلق أخباراً من وراء الجبال؟

نظر يحيى اليه نظرة ثابتة، وكأنما يريد أن يستشف بها هل هو يسخر منه أو يناكده. لم يجد شيئاً من هذا في وجهه. قال مبتعداً عن الماضي:

— لانتشر الى ماضٍ قديم... راح وانقضى.

حاول ثابت أن يبرر سؤاله بقوله:

— لعلك تستغرب أو تستاء إذا قلت لك أنني قصصت على حسان ابني قصتك مع ابنك وزوجتك .

قال يحيى كالهامس :

— كأنك موكل دائماً بنشر هزائمي .

قال ثابت متراجعاً :

— في البداية أردت أن أقص عليه حكايات الذين استطابوا الحياة في الغربة ، ثم وجدت نفسي أنفرد بأخبارك ، وجعلتك بطل فيلم .

لم يبد الغضب أو الضيق على يحيى ، ولكنه ضحك ضحكة مهشمة . وهم بأن يقول شيئاً ، بأن حرك صدره الى الأمام ، ولكنه ارتد في اللحظة التالية ، واتكأ على ظهر المقعد كالمتهار قائلاً :

— لم تجد شيئاً آخر مسلياً تقصه عليه .

— لم أجد في ذهني ، أو انسقت اليك انسياقاً لكثرة ماتبادلنا الحديث .

هل تذكر كم كنا نتحدث عن ذلك ؟

— كل جرح موجه في البداية ... ثم يندمل .

— أي جرح أوجع من أن يناديك ابنك : عمي ؟

— لاتعجبني لهجتك ... كأنك تشفى .

— لا ، والله ... ولكنني ذاهل وغير مصدق .

مط يحيى سليم شفتيه ، وقال :

— لأنك تقيس الحياة بمساطر ... الحياة مملوءة بالمطبات .

عادا يتذكران مامضى لنوع من المحاولة للخروج من مطبات الحياة ، ولكن يحيى أحول

عينيه بعد سهوم مفاجيء ، وقال :

— هل تتذكر كيف انقلب حفل العرس الى مآتم ؟

— أتذكر ...

وزاد الحول أكثر وبدت بشرة وجهه تنقسي وتسمك . وبدأ مفصلاً عنه أو كملقن

مسرحي .

— في البداية جلب لي أصدقائي باقات زوجية ، وهي عادة توضع على القبور . ثم بدلاً

من أن يخنوا ويرقصوا راحوا يتناقشون بالسياسة ، ويتشاقمون ... تتذكر ؟

— أتذكر كيف صعد صالح جميل على المائدة يخطب ... الحرب ، الحرب ، بابو مدين .

هز يحيى سليم رأسه ندامة . وعاد الى مونولوجه الداخلي ، من تحت صندوق الملقن :

— وكانت الى جانبي تبكي بدموع غير مرئية ... ربما رأيت المستقبل ، رأيت نعش الزواج

أمام عينيها... ثم تركت المائدة.. وأغرقهما صمت ثقيل، تأوه بعده يحيى سليم، وقال:  
— يقولون النسيان دواء ناجع... ولكن ليس متوفراً في صيدليات الحياة دائماً.  
— أو قل ليس جميع الناس قادرين على شرائه. وربما نحن الشرقيين بالذات لانسي، لشدة  
تأصل أخذ الثأر فينا.

قال يحيى سليم بحماس:

— المهم ماذا تنسى؟ الحلو والمر مخلوط في كل الأشياء. زواجي المقبور رغم كل مافيه من  
أيام مريرة لا يخلو من لحظات حلوة استرجعها في خلوتي. لقد ذهبت الى البحر لاسترجع بعض  
تلك اللحظات الحلوة. إن الحياة يجب أن تعاش لأن تفلسف. وهي ليست قابلة للانتظار.  
ممنوع على الانسان أن ينتظر. الانتظار مضيعة للوقت. هل تذكر جدالاتنا عن اللحظة الثورية؟  
بقينا ننتظرها، وما زال الجماعة هنا ينتظرونها على موائد مترعة بالخمرة... ولكنها لم تحل.

قال ثابت مدافعاً عن نفسه:

— لا بد أنها ستحل. على كل حال أنا ما زال ضد المشاريع الطويلة خارج الوطن. والزواج  
مشروع طويل لكل العمر.

صاح يحيى:

— ولكن النفس لا تدري بأي أرض تموت.

— ولكنها لو خيرت لفضلت أن تموت في بلدها.

وتعلمني بذلك؟ ولكنني أعرف شخصاً كان مصاباً في معدته. وكان يطل من شرفة  
منزله، فيرى في البعيد مقبرة تترية فسيحة، فكان يمسك سماعة التلفون، ويتلفن الى أصدقائه  
ويقول: إذا مت، فلا تزحوا أنفسكم، وتنقلوني الى العراق. ادفوني هناك لينظر الى أحبابي من  
هذه النافذة. وأنا أي أحباب ينظرون إليّ إذا دفنت هنا؟ والأمر مختلف بالنسبة لك. فأنت  
تعرف أين تدفن. جمت الى هنا جاهزاً مجهزاً، كما يقولون. كان لك من ينتظرك في الوطن. وأنا  
من ينتظري؟ جمت الى هنا خالي القلب إلا من الأشواق الى حياة تستحق أن تعاش.

— وعشتها؟

— نعم عشتها إذا كنت تقصد حياتي مع نادية، ولست نادماً عليها. سأظل احتفظ  
بحياتي القصيرة مع نادية في منطقة عزيزة من ذاكرتي. وماذا للناس غير ذكرياتهم يسترجعونها في  
حالة الحلم أو الحنين.

قال ثابت حسين لنفسه: صار يحيى يتفلسف، رغم أنه ضد الفلسفة. ولم يكن، الآن،  
بعد تلك السنوات من الغربة، يشعر بما كان يشعر من قبل من الحق على اخفاقاته المتكررة.  
صار يشفق عليه. شيء فيه كان يجعله يفكر، يتأمل مصائر الناس، والحياة ودهاليزها، بالحياة

الكبيرة والنجاح الضئيل . وسمعه يقول :

— التكرى، التكرى .

انتبه اليه . نظر في وجهه . تجاوب معه :

— زاد ليالي الأزق .

— وساعات أحلام اليقظة .

وبدأ يحبى سليم كالحالم حين كرر قوله السابق :

— هل تعرف أنني في سفرتي هذه الى البحر رحمت افتش عن الأماكن التي كنا فيها

سوية، أنا ونادية، في أول صيف ساخن في زواجنا .

وعادت عينه صافيتين، وزال عنهما حولهما تماماً . ولكن هاتين العينين لم تكونا تنظران

اليه بل الى أشياء غير مرئية، وأنشأ يقص :

— كنت قد أستأجرت ونادية غرفة في فندق على ساحل البحر يجاور جدولاً جافاً كان

يشق المدينة الساحلية الى شقين . كنت أنام وادعاً الى وقت متأخر، هائناً بطراوة البحر وأشعر

بنادية تخرج الى البحر . وعندما كنت أجيء اليها في الضحى حاملاً معي فطورها كنت أسرح

عيني في جموع المستحبات والمستحمين مفتشاً عنها، فيلتقطها بصري بين كل أنواع الأجساد،

بين كل ألوان المايوهات، كأنني أشم رائحة جسدها بين آلاف الروائح السابحة في الهواة

المفخورة بجمرة الشمس . كنت أراها من بعيد كالزهرة المتفتحة في الصباح على قطرات الندى،

فأقدم بثقة، عبر الأجساد، الى غايتي، شاعراً بالاعتزاز ونعمى الوصول الى المقصد . وكانت

أحياناً تلمحني من بعيد، فتلوح لي بذراعها، ويزداد اعتزازي، واخترق كالربان أمواج البشر

الحاشدة، وحين أصل اليها، بعد تعثر، والحرق يعلك جسدي، كنت أرتقي قربها، واسترخي،

وكأنني أويت الى خيمة أو ظل وريف .

وبدا وجه يحبى سليم متوهجاً وعرقاً، وكأنه بالفعل قطع الآن أيضاً، تلك المسافة في حر

الجنوب رفع قدحه، وشرب جرعة طويلة من السائل المحبب، نبيذ الشمبانيا الذهبي، وأطلق زفرة

طويلة لم تبد كزفرة، بل كتنفس الصعداء . وحدث ثابت نفسه : إنها حالة وجدانية لرجل تجاوز

الأربعين، بحث ويحث بين النساء حتى وجد ضالته ...

ولكنها تركته في لحظة من لحظات خيباته الكثيرة . دعني لأقسو عليه، كما كنت أفعل،

في الأيام الخوالي . وحاول ثابت أن يجاربه في مطارحة الذكريات . قال :

— وأنا أيضاً، في ليالي سهادي، حين يوقظني ذلك المخرز اللعين في الساعة الثانية بعد

منتصف الليل . هل لديك مثل هذا المخرز يايحبي ؟

— لا، المخرز في قلبي . ولكن عندي رجة كهربائية، حالما انسرح في النوم حتى تعتريني

هذه الرجة كمن هزّه تيار كهربائي، فافتح عيني، وأحدق في السقف . ولكن الذكريات تنثال

عليّ، حين أدخلو الى نفسي، حين أكون وحيداً، سواء كنت في الباص أو المترو، أو أتمشي في الشارع، وحتى حين أطلع كتاباً... يسرح ذهني الى عالم آخر هو عالم الحلم... وحتى حين اترجم وتستعص عليّ كلمة أو جملة، فأتذكر موقفاً استعصى عليّ في حياتي الواقعية.

وكان ثابت حسين خلال ذلك قد تذكر سهوته البارحة مع ذكرى طافت في خياله غير

مقصودة:

— أما أنا، فلا ينفك شريط ذكرياتي إلا في تلك الساعة التي يوخزني فيها ذلك الخرز في أعماق الليل، واستيقظ نصف استيقاظ، وتبدأ الصور تتثال على رأسي، تدوم في دماغي، ثم تصفو شيئاً فشيئاً، وتطل الذكريات، وتنفك وشائعها. البارحة مثلاً، حين استيقظت في قلب الليل، لأعرف لماذا أخذت أتذكر حادثة في حياتي الماضية. ربما لأنني الآن في حالة قلق واستنفار، مثل حالتي آنذاك. كانت الموانئ العربية قد سدت في وجوهنا أنا واثنين من الفلسطينيين كانا يحملان جوازَي حكومة فلسطين المؤقتة التي لم تكن سورية تعترف بها. وكنا عائدتين من مهرجان الشباب مع عشرات العائدين، فلم تقبل الجهات السورية آنذاك بنزولنا، فاتصل قبطان الباخرة الرومانية بيميناء بيروت، وظل ينتظر الرد. وكنا نحس بالحرقة والضياع. نحن عند ساحل بلد عربي يرفض استقبالنا لأسباب غامضة لم أكن أعرفها في ذلك الوقت. وكان القبطان وبجارة الباخرة الآخرون يتسلون، في فترات الانتظار، بصيد السمك في ميناء اللاذقية ببرود أعصاب. يقضون ساعات طويلة على الحاجز، ينتظرون السمكة البلهاء التي ستسحب الطعام، فينغرز الشخص في حلقتها، وتنتهي حياتها على الماء، مثلما كانت حياتنا على اليابسة معلقة بقرار صياد مجهول. كنت أراقبهم من فوق وكنت أقول لنفسي: سعادة هؤلاء سعادة لا توصف، سعادة بالوطن الذي ينتظرهم بدون حواجز ولا عقوبة، بالموانئ المفتوحة لأن لهم هوية، فلماذا لا يطعمونون بالأ، ويصطادون السمك بهدوء أعصاب. قضينا ليلتين ضائعتين حتى جاء القرار برفض نزولنا الى اليابسة. أبحرت بنا الباخرة عائدة، وانزلونا في رومانيا في منتجع صيفي للطلائع كان فارغاً، لأن الطلائع عادوا الى دراستهم. أكرموا وفادتنا، واطعمونا لذيق الطعام. في الصباح كانوا يقدمون لنا دورقاً كبيراً من الشاي له طعم غريب ولذيذ، كنا نحس منه أكواباً كبيرة. ولما سألتنا عن ذلك الذي يكسبه هذا الطعام العطر المشيع دفقاً ناعماً في الأوصال، قالوا لنا: انه مخلوط بالروم. ودأبنا على شرب الشاي المخلوط بالروم في تلك الصباحات الخريفية الباردة المضيبة، حيث كانت قطرات المطر تتدلى من الأغصان مثل حبات صغيرة من البلور، وظل هذا الطعام الدافئ يغمر صدري بنشوة حنون. وفيما بعد، حين صارت تلك الأيام ذكرى، واستقر بي المقام في بلادي، كنت أحياناً أخلط الشاي بقطرات من الروم، ولكن لم استعد ذلك الطعام العنبري. وربما لأن ذلك صار ذكرى، أو ربما كان الشاي المطعم بالروم لا يكتسب تلك النكهة إلا في تلك الصباحات الخريفية الباردة المضيبة، أو ربما كانت له علاقة

بحالة الضياع التي كنا فيها، والجامعة الى قطرة دفء تسري في الأوصال... أو ربما لأنه التجربة الأولى...

وأحسن ثابت حسين، وكأنه يلهث من تدفق الذكرى بهذا الزخم القاهر الآخذ بالأنفاس. حديق يحيى سليم فيه، وهز رأسه، وفتح له عينيه الحزبتين. وقال: — ذلك هو الأرق صانع الحكايات.

ورفع كأسه، وأدارها بين يديه، وقال وهو ينظر إليها: — أتدري ماذا أتمنى؟

نظر ثابت اليه بانتظار الجواب.

— أتمنى أن تخترع الانسانية شيئين صغيرين ليسا كوسائل الدمار الضخمة المخزونة داخل الأرض...

وجد ثابت حسين نفسه يقول:

— ما هما؟

— أن تخترع أولاً آلة منومة...

— توجد هناك أقراص منومة...

— لا، بل أريدها آلة صغيرة تتركب على دماغ الانسان، وتنصب كالساعة المنبهة، يستطيع الانسان أن يوقتها حسب ما يريد. ينام في الساعة المطلوبة لتوقظه في الساعة المطلوبة.

— يوجد مثل هؤلاء الناس الأصحاء. في داخلهم مثل هذه الآلات.

— قلائل... وتقدم العمر يهدم مناعتهم ضد الأرق...

— والشيء الثاني؟

وابتسم يحيى سليم، وعاد يدير الكأس بين يديه.

— وأريد أن تخترع الانسانية سائلاً عذب المذاق يولد النشوة لدى الانسان دون أن

يسبب له صداعاً أو تأنيب ضمير، أو تشمع كبد أو قرحة في المعدة... أتراها عاجزة عن ذلك

وهي التي تخترع مالا يخطر على البال؟

— من يدري ربما ستخترع... ولكن ليس لجيلنا...

— جيل المنتظرين؟

— لأظننا ننتظر... بل نمارس حياتنا بشكل بطيء ورتيب.

— والمهم أن نسرع؟

— المهم أن يكون لحياتنا مردود...

— مردود؟

— وليس تراكمأً عددياً...

قال يحيى سليم وعادت عيناه الى حولهما :

— أتقصديني ؟

— وهل حياتك مردود ؟

— الشك في ذلك هو الذي يعذبني ، ولكنني أحاول ، فلعلي أنجح في إحدى المحاولات ...

ربما تتبلور المفاهيم في الذهن ، والثبات على هذه المفاهيم ، اكتساب القناعات ، والدفاع عن هذه القناعات ، والسير عليها تكسب الحياة معنى يمكن أن يعتبر مردوداً .

— يعني تريد أن تقول أن تكون لك قضية .

— ولم لا ؟ الانسان بلا قضية ورقة في مهب الريح .

— رجعنا الى لغة الشعارات ! كم قتلتنى شعاراتكم !

قال ثابت متراجعاً :

— المهم احساسك الداخلي .

— ماهو احساسى الداخلي ؟

— أن تكون لك مهمة ... أنت ، حين تترجم الا تحس بهذا الاحساس .

— لا ، أبداً . انها طريقة واحدة من طرق كسب الرزق ... تبدو في كثير من الأحيان

مضجرة ، لأن ماأترجمه مفروض علي ، وكثيراً ما لاتكون لي الرغبة في أدائه على الوجه الصحيح ...

— وليس لك أمل آخر في الحياة ؟

— انتظار معجزة ...

سكت ثابت كمن ألقم حجراً ، وقال :

— هذه المعجزة التي تتحدث عنها نوع من الأمل الغامض ، الاحساس بوجود أن

يحدث شيء أنت في انتظاره ... الانسان لايد أن ينتظر شيئاً .

— أنت ماذا تنتظر ؟

— أنا ماذا أنتظر ؟ في المرحلة الراهنة أنتظر شفاء ابني ... ربما لاتعتقد أنني أحس حتى

النخاع ، كما يقولون ، بأنني مسؤول عن محنة ابني ، وأحس بالذنب يأكل قلبي ، لأنني تركته

يسافر مع أمه ، وبقيت أنا في غرفتي في المطبعة مرتاحاً فوقع ذلك الحادث المشؤوم . إن مستقبله

تبعه في عنقي ، وإن كنت لأملك القدرة على التأثير قدر مايملكه الأطباء الذين يعالجونه . ذلك

شيء من الأشياء التي أعيش من أجلها ، ذلك هو الاحساس الداخلي الذي يتملكني . وإذا كان

لحياتي مردود فإن رد العافية الى ابني جزء من هذا المردود .

قال يحيى سليم :

— هذا الاحساس مفقود عندي منذ زمان ... ربما موجود عند الآخرين ولكنه موجود

عندي . أنا انسان أعيش يومي الحالي فقط . فقد زهدت بما يصنع الناس للآخرين من متاعب ،



بجرد أن يعلنوا عن أنفسهم بالبنط العريض كما يقولون ... في البداية كنت مثلهم، بل كان لدي شعور عميق بالتفوق. هل تذكر يوم تعاركنا في الصف الثالث المتوسط؟ ضحك يحيى سليم ضحكة خشنة.

— كنت أبغض أولئك الذين يشعرونني بأنهم متفوقون علي وأنت كنت تبدو كذلك. كنت متفوقاً علي بسهوميك الطويل، بصمتك القاتل، وحتى بضعفك الجسدي الذي كنت تبدو وكأنك تتحدى به انساناً عملاقاً مثلي، بينما تربيت أنا كأنسان مؤهل لأن يقوم بمعجزات ... لم تبق لي علاقة بها إلا في الانتظار.

ودل يحيى سليم رأسه ماسكاً صدغيه بين سبائته وابهامه. وبدأ وكأنه ثمل. وبعد لحظة صمت تابع يقول:

— ولكن هذا الشعور قد انهار فيما بعد ... ثلاثي ... ربما لاتعرف حتى الآن أنني لست في الأصل من بغداد. أقارني جميعاً يعيشون في بلدة في جنوبها. أنا الأبن الوحيد بين خمس بنات، مثلما كان أبي الابن الوحيد بين ثلاث عشرة ابنة ... تصور انساناً في حالة كهذه، كيف لا يكون فارساً بين حريم من النساء. علي هذا تربيت وكنت أشعر بالتفوق على أخواني الخمس، وحتى على عماتي، من بقيت منهن على قيد الحياة. كنت أتصور نفسي فارسهن، حاميهن، والولي عليهن. وكان لنا بستان صغير فيه احدى وعشرون نخلة ظلت طوال طفولتي، والى أوائل شبائي تقف في ذاكرتي كالشموع المتقدة، وكنت أحس بأنها من رعاياي أيضاً، وإن كانت عمتي، الأخيرة التي بقيت على قيد الحياة، تعتبر نفسها مالكتها. وذات مرة أثناء غيابي للدراسة، عدت الى بلدتي، فرأيت النخلات مقطوعات الرؤوس. كان منظرًا مريعاً بدا لي كالجنث المغرسة في الأرض. وعلمت أن عمتي قد أمرت، قبيل وفاتها، بأن تقطع رؤوسها. أحسست بالخذلان وانهار الرجولة في داخلي. كيف يحدث هذا، وأنا في الوجود؟ كيف يمكن أن تصل القسوة بإنسان، بامرأة موشكة على توديع الحياة، الى هذه الدرجة اللثيمة. كيف استطيع، بعد الآن، أن أقابل أعواد المشانق هذه منصوبة لي، أراها في ليلي ونهاري. عدت راجعاً، ومنذ ذلك لم أر البلدة. بعد ذلك بدا كل شيء سواء لدي. لم أعد أعبا بشيء. هكذا هي الحياة تنتهي فجأة بضربة جلال.

— ومع ذلك فالناس يبنون، الناس يكافحون، والا لخربت الحياة ...

— دعهم يبنون في انتظار يد قاسية، فأس، سيف، طلقة، مشنقة، وينتهي الأمر ...

كان الحديث يبدو مأساوياً وغير مشجع للاطالة فيه قال ثابت:

— أنت تجعل الدنيا بلا بارقة أمل ... ومع ذلك قال ضاحكاً ملطفاً لهجته — أنا مسؤول

عنك أمام ابني ... انه يطلب جواباً ... ماذا سأقول له؟

— الزمن سيحسم الموضوع ... اتركه للزمن.

— وهو لحد الآن لم يحسمه ...

— لأستطيع أن أقول لك إلا شيئاً واحداً... في الليلة الأخيرة، ونحن مجتمعون على العشاء في غرفتي الصغيرة اكتسى وجه فريد قناع الجدبة، وتحدث كما يتحدث الكبار، قال: على العموم، أنا لست ضد أن أعيش مع عمو يحيى، ولكن في بلدتنا، وليس هنا. قلت له: ولكن فرجتك على هذه المدينة جيداً، واريتك معالمها الجميلة. قال بنفس اللهجة: هذه المدينة جميلة، ولكنها كبيرة وصاخبة. يمكن أن تزار، ولكن لايمكن أن يعاش فيها.

— هذه بارقة الأمل التي ذكرتها... حركت نداء الدم فيه، وهذا ماأريد أن أثبتة لأبني.

— الدم لايحافظ على درجة واحدة من الحرارة، يمكن أن يفور ويمكن أن يبرد... تجمده

ثلوج الفراق.

وقال يحيى في سره: سيقتلني ثابت بتصميمه هذا. ربما لأنه يرتكن الى تاريخ، بينما أنا

بلا تاريخ... ضائع.. العلة يريد أن يقنعني: لاتاريخ يمكن أن يكتب خارج الوطن؟ ولكن

هناك من كتبوا هذا التاريخ... هناك من ربطوا الماضي بالحاضر ليقفروا الى مستقبل قريب...

وضحك يحيى سليم في سره أيضاً وقال لنفسه: اولئك لم يكونوا من أمثالي. هذا في حكم

المؤكد...

استيقظ صالح جميل على شعور بهيج يدغدغ حواشي نفسه . فرك عينيه بسبابتيه ، ولذ له أن يتمطي . ولكنه خشي أن تتشنج العروق في أسفل ظهره ، وهو أمر يحدث كلما أتى حركة غير حركاته اليومية المعتادة . حاول أن يتذكر مبعث هذا الشعور بهيج . لم يغمض عينيه لأنه خشي من الدوامات التي ستدير رأسه إذا فعل ذلك . فتح عينيه اللزجتين ، وحدق في الغما برؤوسها الثلاثة البيضاء ، المذهبة ، الشبيهة بأقداح الشمبانيا تطل عليه من عل . ومرق في ذهنه شبح ذكرى . أزاح الغطاء ، ومخطوتين من قدمين حافيتين ، وصل الى الكرسي الذي يسترخي عليه بنطلونه الأخضر ، فوق السترة والقميص الأخضرين على ظهر الكرسي . لايدري كيف فعل ذلك البارحة ، وتلمس جيوب سترته ، حتى أخرج مذكرة عتيقة متبرئة يسجل فيها أرقام التلفونات . وراح يقلبها . تذكر أن أحداً قد تلفن له ، بعد تلك اللحظة التي تغبش فيها الذاكرة ، ثم ينقطع شريطها . وكان دائم الوجل من أن يحدث شيء في تلك اللحظة — الغيبوبة — فلا يتذكره في اليوم التالي أو ينساه الى الأبد . وكم ورطه ذلك ، كم موعد ضاع منه ، من ذاكرته الصباحية ! والآن لايتذكر إلا أنه سجل شيئاً في دفتره . أين ، وماهو ؟ لايدري . سجله في لحظة صفاء في الذاكرة . قلب الدفتر الصغيرة المفكك الأوراق ، حتى عمر على شيء خطت فيه خريشة لم يعرف كيف يقرأها . لايد أنها تلك التي سجلها البارحة في خط يده ، ليتذكرها في الصباح . حاول جاهداً أن يفك رموزها . أهذا حاء أم ميم ؟ أهذه ناء أم فاء ؟ واتعب دماغه ولم يهتد الى شيء . ترك الدفتر على البنطلون وذهب ليغتسل . انتهت الطقوس الصباحية بخمس دقائق ، جلس بعدها الى التلفون :

— يحيى ، صباح الخير .

— الأخرى بك أن تقول لي ظهر الخير .

ضحكة مكرجة و : الآن استيقظت من النوم . الوقت بالنسبة لي صباح . ولكن لافرق .

أيش تعمل ؟

— ماذا تظن ؟ ارقص ؟

— لا ، تترجم ، أو ترقص على الورق ... تشوك ، تشوك ، تشوك ..

— أحسنت .

- هل كلمتني البارحة ليلاً؟  
 — لا.. وهل نسيت مرة أخرى؟ قلت لك سجل في ورقة حتى لا تنسى.  
 — سجلته، والله، ولكن، لأعرف أن أقرأه. هل ساعدتني في قراءته؟  
 — اعتذر، ورأني شغل...  
 ولما عجز عن اقناعه تلفن لشخص آخر، ثم الثالث، وحين يئس، تهباً لتحضير فطوره.  
 بيضة مقليه مع شريحة خبز واحدة، فالمعدة المتعودة على السوائل لاتتحمل أكثر من هذا الثقل.  
 وبينما كان كذلك دق جرس التلفون، فقفز:  
 — ايه! ورفع السماعه. كان المتكلم ثابت حسين.  
 — ها؟ أراك ماتزال في البيت؟  
 — والى أين تريدني أن أذهب في هذا الصباح؟  
 — عجيب؟ المطار؟  
 — أي مطار — وعندئذ خطر في ذهنه شيء — أنت الذي تلفن لي بعد اغلاق دكان  
 دماغي؟

- نعم...  
 — وماذا كنت تريد؟  
 — طلبت اليك أن تذهب الى المطار لتستقبل أختك.  
 — آه، تذكرت. قادمة من بغداد.  
 — نعم، في سفرة سياحية، فلماذا لم تخرج لاستقبالها؟  
 ارتحى صالح جميل، وقال:  
 — مادامت سفرة سياحية، فسأجدها. أنا أعرف الفندق الذي سيقيمون فيه..  
 سأذهب بعد ساعتين أو ثلاث.  
 — خذني معك. فقد جلبوا لي حاجيات معها، أو مع احدى المسافرين. متى ستتهبأ.  
 — نلتقي في المقهى.

وعاد يهيبء طعام فطوره. وفي تلك الساعة كان في بهو المطار جماعة كبيرة من السياح  
 السمر الوجوه، يروحون ويجيئون مضطربين، ضاجين، يتنادون فيما بينهم بأصوات عالية تبدو  
 نشازاً في ذلك الجو المتراسخي الهامس. وكان ثمة أشخاص يشرثبون بأعناقهم، من حين لآخر،  
 من وراء الحاجز، يبحثون في جمع المستقبلين على بعد أمتار، عن وجوه يعرفونها. ومن بين هؤلاء  
 امرأة شابة في تلك الأناقة البغدادية المعدة خصيصاً للسفر بها خارج العراق، بما فيها من للاء.  
 الذهب على المعاصم، وتراقص الأقراط الطويلة على الآذان، ولعة الأحجار الكريمة على الأصابع.

والثانية امرأة صغيرة الجرم كانت تحمل عبائها في يدها . وكانت هذه العباءة قد تنقلت بين أوضاع مختلفة منذ أن دخلت مطار بغداد في باكر الصباح . والآن تلتف على يديها ، ولاتعرف ماذا تفعل بها في هذا الجو المتبرج الصقييل ، الفواح بشتى العطور والمشاع للأناث والذكور . كانت الأولى زوجة علوان شاعر ، الطالب في الدراسات العليا ، والثانية أخت صالح جميل الذي كان قد لحق أن يأكل بيضته ، ويعلك كسرة خبزه ، ويتهبأ للخروج . جاء الباص لنقل السياح الى المدينة . قالت الزوجة :

— لا ، أنا أريد أن أذهب لزوجي . وعندني عنوانه .

قال المترجم :

— لايجوز ! يجب أن نساfer الى الفندق أولاً . تلفني عليه من الفندق .

— ليس له تلفون .

— لا يجوز ، يجب أن نساfer الى الفندق .

— الفندق في مدينة أخرى ؟

— لا ، في هذه المدينة .

— فلماذا تقول نساfer ؟

— إذن نركب اليه .

وبعد نقاش طويل ، اضطرت الى ركوب الباص متدمرة . وكان علوان شاعر قد خرج ، في تلك اللحظة ، من المكتبة راكضاً ، ليلحق أن يشتري مايناسب سهرة جميلة تمتد الى ساعة متأخرة من الليل ، ولربما الى الصبح . شوق وعطش ! وكيف يجرع الدارس العلم الجاف بدون هذه المرطبات ؟ وأكمل المهمة في ساعة ، وذهب الى البيت ليأخذ غفوة ويستعد للمساء . وكان صالح جميل ، في ذلك الحين ، في البار ينظر الى أظافره وأصابعه القصيرة المتورمة ، وأمامه قدهح الشمبانيا الأول يكاد يكون فارغاً .

وثابت حسين عند سير ابنه يقص عليه الحكايات ، ومايعتبره نقل الخبرات وتجارب الحياة من جيل الى جيل ، ويشوق الحياة لابنه ، ويذكره بأصدقائه القدامى . وقف الباص أمام بناية الفندق البنية ، ونزل السياح ، ودخلوا البهو في شزيمة ضاحجة . وكانت زوجة علوان شاعر ماتزال على إصرارها في الذهاب الى زوجها . وكان زوجها ينام مرتاحاً هائناً . افرغ صالح جميل بقية قدهح ، وقال لنفسه : أظنهم ، مايزالون في المطار . اجراءات وتفتيش . واسترخى ، واشتهى أن يطلب قدهحاً آخر حتى يهل أحد « الخرفان » ويجره معه الى الفندق .

— لاتحف ، يابني ، لاتحف ... انها عملية سهلة .

— اليوم أخذوا الدم من هنا ...

وأشار الى باطن مرفقه .

— لأبأس . غداً سأجلب لك أطايب العراق . قلت لك أنني كلمت أمك البارحة في التلغون . فقالت أنها أرسلت لك هدايا حاجيات ... الآن موسم الليمون الأخضر في العراق ، فيه شدى القداح ...

وتلمض صالح جميل بجمرة كبيرة من قدحه الثاني ، وأوجعته أسنانه من برودتها ، فأطبق فمه على فمه . ولما زالت سورة الألم سأل جاره عن الساعة . وقال لنفسه في استرخاء : مازال هناك وقت . وبعد دقائق أطل الرسام ، والسيكارة تتدل من منتصف شفته ، والأنف المدبب فوقها ، والشعر المجعد الغزير يطوق الوجه بهالة سوداء . قال صالح ، وكأنه وجد لقطه :  
« ايه ... ذهبنا ! »

— الى أين ؟

— لايمهم ، ستعرف فيما بعد . هل نذهب الآن ، أم تشرب قدحاً ؟

— ولكن الى أين ؟

— جاءت وجبة خرفان من العراق . سنسمع أخباراً كثيرة ... أختي بينهم .

وضحك من كلامه ، وضم فمه بكفه ثانية . ولابد أن أسنانه أوجعته .

استحم علوان شاكراً ، وتعطر ، وأخذ ينتظر . وكانت زوجته في ذلك الوقت تحوم حول المترجم : « أريد سيارة ، أريد سيارة » . ولم تكن وحدها قرب المترجم الشاب النحيل الطويل ، بل معها نسوة أخريات . قالت امرأة بدينة :

— عيني ، هل تعرف ابني ؟

— ابنك أنت ؟ من هو ابنك ؟

— يدرس في المعهد .

— أي معهد ...

— لأدري ، مكتوب هنا .

وقدمت له ورقة . وقالت ثالثة :

— ابني الله يحفظك ، اريدك توديني الى مستشفى الرمد .

— الرمد ؟ ماهو الرمد ؟

وقالت رابعة :

— جدر الباجة راح يخرب ... لازم أشوف ابني اليوم ... وضربت الأرض بقدمها

العريضة .

وقالت خامسة :

— عيني أكو لحاف في الحجره ...

— لحاف؟ ماهو لحاف؟

وصاح رجل بدين في ضيق كان مائتاً الكرسي العريض بجسمه، وأمامه كرشه مثل بطيخة من آسيا الوسطى.

— لماذا تتعين الرجل. أولادنا سيأتون ويحلون لنا كل مشكلة.

وبدأ الأولاد يتوافدون. وكانت زوجة علوان شاكراً قد غافلت المترجم، وعرفت رقم حجرتها والمرأة التي ستشاركها الحجره، وانسلت من باب الفندق. دق الجرس فخف علوان شاكراً لفتحه. وأضياءت وجهه البني القاتم ابتسامه عريضة. وبعد فراغ القدح الثاني تلملم صالح جميل، وقال للرسام: « نقلع؟ » وكانت أخته تدير قرص التلفزيون مرة بعد أخرى، ثم تعيد السماعه، وتقول: « مشغول ... اشكده يحجي!

من عنده هنا ليكون بهذه الميانه معه؟ »

— الى اللقاء، يا ولدي، الى الغد.

وقبل ولده من جبينه، وانصرف.

— ثابت حسين لم تعجبه لوحاتي، كما يبدو.

قال الرسام لصالح جميل، وهما ينتظران سياره تكسي:

— ولماذا؟

— يريد ألواناً زاهية.

— ومن أين تأتي له بالألوان الزاهية، وفي الفم طعم الرماد.

— القسوة عنوان هذا العالم، ويريد أن نطليها بالأخضر ...

— والبعد عن الوطن سراب في العيون. والسراب مالونه؟

— في أي وقت من أوقات اليوم؟

وضحك الرسام. وككرر صالح، وقال معجباً بفكرته.

— صحيح، مالون السراب؟ أنت تتعامل مع الألوان.

— بلون شاريك الرمادي.

وكانت أخته تقول لجارتها في الحجره:

— مشغول، مشغول، دائماً مشغول. يجب حجبي، مسامر ...

قالت جارتها:

— ربما التلفزيون خربان ... لماذا لاتسألين المترجم؟

استرخى علوان شاكراً على الأريكة جذلاً نشوان، وفرك يديه كمن يهم بأن يفعل شيئاً.

ولكنه عدل، واتكأ على الأريكة، وألقى ذراعاه على قاطعها، وقال:

— ما أعذب الكأس اذا شربت مع وجه صبوح؟ ... نحن العرب نقول: الكأس والماء والوجه الحسن.

ولم تكتشف زميلته تزويره للمثل العربي، ولكنها اعترضت على الماء.

— الماء؟ لماذا الماء؟

— لأننا والماء من حولنا قوم جلوس حولهم ماء... نحن أبناء الصحراء.

— الآن بدأت أفهم.

— شش!

دق الجرس. فجفل علوان شاكر. وقال من هذا الأمي الحقير الذي يأتي في مثل ساعة الأُنس هذه؟

وعرفت أخت صالح جميل السر في التلفون. كان يجب أن تدير رقم ٨ أولاً. ولما أدارته،

ودق الجرس بشكل اعتيادي قالت:

— ايه، هسة صحيح.

وكان أخوها يصعد إليها درجات السلم بتعب... وضع يحيى سليم القلم، واتكأ على ظهر الكرسي، وتمطى، وفرك عينيه المتعبتين. وقال: «اللجنة! لم اشتغل اليوم إلا ربع الحصّة اليومية». ونهض من كرسيه ملولاً، واتجه الى النافذة العريضة الخالية من الستائر، ونظر الى الشارع، رآه حافلاً بالناس وبالحرّكة. والناس يسرون سيراً حثيثاً، وشعور بعض الفتيان طويلة مثل شعر النساء، تتمايل على أقفيتهم. وعاد اليه ذلك الشعور القاتل بأنه يقضي حياته حبيساً في غرفة في الطابق السادس. إن أيامه تذهب هدراً، وبلا فرحة. كانت فرحة واحدة وانقبرت.

وقال لنفسه: صحيح مايقول ثابت. الحياة في الغربية ليست إلا انتظاراً لشيء سيحدث دون أن نعرفه على وجه التحديد. الحياة هنا سهلة ورتيبة، تقتل كل شوق للمجازفة، لتجريب أنواع أخرى من الحياة، للمعاناة الحقيقية. الحياة هنا لاتنمو... بل تستطيل أياماً وليالي مؤرقة مملّة بالكوايبس. وترك النظر الى الشارع، واتجه ببصره الى الغرفة الصغيرة، ورن في فاع ذاكرته شطر بيت: «بالأمس كانوا هنا، واليوم قد رحلوا.» بالأمس كان فريد يبعث في هذا التلفون الصغير الموضوع على هذه الطاولة الصغيرة، ويقلب الكتب بحثاً عن الصور، حتى لايجد صورة تثير الفضول يتركها زاهداً، وينفض يديه مما علق بها من غبار. خنقته العبرة. أليس عيباً، ياها! لاتتأثر. خلقت في الأصل كتلة من الأعصاب المتوترة، ولكن الحياة علمتكم أن تكتم أن تترك الأشياء تمر من بين يديك، أن تنتظر شيئاً غير معروف بدقة. قلت لها مع السلامة، يانادية. مع السلامة، أو الى لقاء جديد... بعد عشر سنين، ألم تمض هذه العشر سنين! — حين يتفشى الشيب في هذا الشعر الكثيف، ويتخاذل الشارب، ويتبدل على الشفتين



كدودة ميتة رمادية . وتصارعت الأفكار كالأبالسة في قنينة نفسه الضيقة الفوهة . شرع يلبس ولكن الى أين يذهب . الى صاحب « البوكس » الحديدي؟ يعظه بأن يكون لحياته مردود . أي مردود . عدد الصفحات ، الحياة التي أترجمها . عدد الليالي المؤرقة التي أخوض حرباً فيها غير معلنة مع الذكريات ، عدد النخيل الذي كان على أن أحرسه ، ولم أحرسه . أي مردود ، ياباً حسان . دع قناعتك لك . أو دعني أتدفأ فيها في لحظات الشجاعة المؤجلة ، وانتظر مثلث اللحظة الثورية التي لانعرف في أي قرن تهل . هل تذكر كيف كنت تعظ بها ، وماتزال كما أعتقد . حاولت أن تبني حياتك على خلق هذه اللحظة الثورية ، وتبشر الناس بها ، أو سوقهم اليها ، ومنهم أنا ولكنها لم تهل ، أو هلت مثل ومض البرق ، وانطفأت وجعلت المتيمن بها ينوحون أو يعضون بنان الندم . أما أنا فقد يمست ... أو قل ... لم أعبأ بقدمها وزوالها لأنها كالبرق الخلب ... وهل تريدني أطارق برقاً خلباً . امتلاً يحيى سلم مرارة ، ولكنه ليس ملاسه على أية حال ، وتلفن الى صديقه في الفندق . وفي فندق آخر كانت أخت صالح جميل تتزئم محاولة أن تدق « اصبعين » وتترنم : « تجونا لو نجحكم ، أحباب قلبي ! » كانت جذلي لأمعة العينين . ولكن صالح أجابها بهدوء : لا ، تعالوا لنا آمن ! ضحك الرسام ، اهتزت السيكاة المتدلية في وسط فمه ، وقال : أتعرفين ؟ هذه تورية سياسية . لم تفهم الأخت كلمة « تورية » فقالت : لا ، عيني ، بلا تورية ولاسياسية . من غيرهما قصوا بيتنا ليفتحوا شارعاً . قال صالح مستفيداً من الأخبار التي قصتها عليه : إذا كان بيت الحجي قرروا أن يقصوه . قالت الأخت : الحجي عنده معارف عند الحكومة . ونحن من عندنا؟ قال الرسام : شفت ؟ هذه سياسة أيضاً . قالت ببراءة ذمة : التوبة ، بعدما افتح حلقي ! وفي جانب آخر من هذه المدينة المترامية الأطراف . كان علوان شاكر يؤكد لزوجته : تقي بأنها زميلتي في الدراسة . تعرف العربية قليلاً : أكو ، ماكو ! وكانت الزوجة جالسة في مقعد قبالتها ، والأشياء التي جاءت بها من بغداد ملقاة عن قدمها . لن تصدق ، ولو حلف لها أغلظ الأيمان ، إن جلستهما خالية ، كانت الحمرة هناك ، والمزة واللحم المشوي . وكانت الزميلة منكسة الرأس ، محرجة ، يكاد الدم يتدفق من خديها المحمرين . فأية زميلة هذه إذن ؟ قالت :

— هكذا تعنيت ، وجئتك من بغداد ، بعد ألف شفاعة وواسطة ، وأراك في أحضان

امرأة ؟

— أعود بالله ! ما هذا الذي تقولينه ، يارسمية ؟

— جلبت لك كل ما استطعت أن انتزعه من بغداد ، وتصورت أنك ستستقبلني في

المطار بالأحضان ، وإذا بك ...

— صدقيني ، يارسمية ، أحلف ب ...

— هذا زمان لاتصدق به أغلظ الأيمان . دول بكاملها لاتستطيع أن تقي بما وعدت ،

فكيف أنت الضئيل؟ ..

- إذا كان لك هذا التصور، سأسكت .
- اسكت وابلع لسانك، صاحبك بالعة لسانها . تعرف اكو ماكو، بس؟
- تقابل الصديقان في الغرفة المطللة على النهر . قال ثابت :
- جسمك حار .
- من قلة الأوكسجين .
- جلسا في حوض النافذة المضلعة المطللة على الكنيسة والنهر، والمصنع، وتأرجحا قليلاً على المقعدين الأحمرين بظهوريهما العالين، وقال يحيى سليم :
- ايه، يا صديق البوكس الحديدي، ماذا وراءك؟
- لاشيء انتظر رسالة من الأهل .
- وتحسبه لاشيء انتظار رسالة من الأهل . المهم أن تنتظر شيئاً .
- كفاك تفجعاً، الدنيا لم تقن بعد ...
- أعرف . ولأريدها أن تقنى ... أريدها أن تتعاش معي، حقوقي كإنسان، مع طموحاتي ... ألسنت جزءاً منها؟
- بالطبع .
- وأريدهك أن تشعر أنت بذلك ...
- شعورك أنت ماذا نفعلك؟
- أعطاني، على الأقل، حرية الحركة ... جعلني أملك ناصية نفسي .
- قال صالح لأخته :
- لننزل الى المطعم، ونبلل حلوقنا بشيء ... فقد جففتها تماماً بأخبارك .
- وبلي ! انزل الى المطعم مع الرجال؟ ..
- وسترين نساء أيضاً ... هذه ليست بغداد ...
- رن جرس التلفون .
- هالو، من يتكلم؟
- من تريدين؟
- أريد ثابت حسين ...
- انا ثابت ... أهلاً وسهلاً ... تفضلي .
- أنا زو ... رسمية ... زوجتك أرسلت لك رسالة معي وبعض الحاجات فكيف أوصلها اليك؟
- أين أنت الآن؟

- في الشارع؟  
 — أي شارع؟  
 — لأعرف...  
 — يمكن أن نلتقي في أي مكان...  
 — الفنادق معروفة هنا... يمكن أن نلتقي بفندقك. في أي فندق أنت نازل؟  
 — وسمي لها اسم الفندق.  
 — وقال صالح جميل لأخته:  
 — حدتي... حدتي في عيون الرجال. لماذا يحدقون بك وأنت لاتحدقين.  
 — وبلي! هاي اش صار بيك؟  
 — سأدخلك في جميع مطاعم هذه المدينة ومقاهيها...  
 — والتقوا في بهو الفندق. انهدت رسمية على المقعد المجاور زافرة مكظومة الغيظ، بادية التعب  
 قال ثابت:  
 — كأنك قادمة من المطار رأساً؟  
 — لا، أبداً.  
 — تبدين متعبة جداً. هل كان الطيران متعباً جداً؟  
 — لا، أبداً، بل وعندي القوي على الرجوع الى بغداد رأساً، هذه الليلة. فمن  
 يساعدني على ذلك؟  
 — ماذا حصل؟  
 — ماذا حصل؟ أكثر من هذا لا يحصل. ذهبت الى زوجي فرأيت مع امرأة. تبادل  
 الصديقان النظرات. قال ثابت:  
 — لاداعي للشك فيه. ربما هي جلسة بريئة. العادات هنا تختلف.  
 — أي جلسة بريئة، وبينهما زجاجة عرق؟ كل الذين يذهبون الى الخارج يفسدون.  
 يتخلون عن تقاليدهم، يخونون.  
 — هذا حكم قاس.  
 — لا، أبداً. رأيت رأي العين.  
 — كانت تتكلم بلهجة جادة ومتأججة تابعت تقول: —  
 — فسق، عريضة، دعارة... كلهم، كلهم...  
 — انتفض يحيى سليم وقال:  
 — ولم هذا التعميم؟ أنا لأعرفك ولاتعرفيني. فلماذا هذا التجني علي، وأنا من المقيمين  
 هنا؟

— آسفة ... ربما هناك استثناء قليل . ولكن الجو موبوء ... موبوء ... سأرجع الى العراق حالاً .

— أظن على رأيي ... ربما كانت جلسة بريفة .

— أية جلسة بريفة وعندما رأيتني نكست رأسها، واحمرت ثم خرجت كالزعلانة ..

ومن الجواز سمعت صوت صفعة ... صفعته !

— أبشرك ، ياولدي ، أمك رزقت بأخت لك .

— أخت ؟

— نعم ، ياولدي ، أنت لاتعرف أنك تركت أمك حاملاً في شهرها الثاني ، ولدت لك

أختاً جميلة مثلك ستكون معينة لك . للأسف على أنني مرة أخرى أجد نفسي بعيداً عن أمك

المسكينة في مثل هذه الأوقات . ولكن هناك عماتك والطيبون من الجيران .

قال الصبي ، وقد أدار ظهره بشيء من الخفة :

— بابا ، وماذا أرسلت أمي ؟

ضحك الأب وقال :

— تقصدت أن أسكت حتى أثير فضولك .

وشرع يفك كيس النايلون الأخضر بحروفه العربية السوداء .

— هذا ماأرسلته لك ، ياولدي ، ليمون حامض مانيزال أخضر . شمه . ( وقربه من أنفه )

ألا يذكرك برائحة القداح ؟ سأقشر لك واحدة فتفوح رائحة الجنوب الريانة . وأرسلك لك

فستقاً ، وحلقوماً شدياً ، وقمر الدين منعشاً . هل تذكر ، كنا نصنع منه الخوشاب ؟

— خوشاب ؟

قال الصبي بغتة ماطاً حرف الألف باستغراب ، وكأنه يذكر اسم صديق نساء ، ثم تذكره

فجأة .

— نعم خوشاب . كانت أمك تصنعه في ليالي رمضان بشكل خاص ، يطفىء الظمأ .

— وماذا أرسلت بعد ؟

— وأرسلت كرزات مشكلة من الموصل ... حبة خضرة ، وسيسي . هل تذكر السيسي ؟

( وفتح الرجل كيساً من الورق وتناول حفنة من الكرزات ، وبسطها على باطن كفه ، والتقط حبة

مملحة مفتوحة ) هذا السيسي . كله وستتذكر طعمه ( ناوله حبة واحدة ) تذكر ذلك ، بالطبع ،

وأمسيات الشتاء الحلوة ، حين تقبع قرب المدفأة النفضية كالجوز في اسطوانات أم الجلب

« صوت سيده » فابعدك عنها ، مخافة أن تحرق يدك . ثم تعود ، فتزحف شيئاً فشيئاً حتى تصل

اليها ، فأراك بنفس القرب ... وفي تلك الأمسيات التي كنت تحب أن تأكل فيها التمر الأشريسي ،

مع الجوز .

لمعت عيننا الصبي يبريق حي، ولم يقل شيئاً. صمت لحظات قال بعدها:  
— وماذا بعثت أمي؟

— آخ طماع! بعثت لك بعض الملابس... قميصاً جميلاً مورداً، وبنطلون أحمر، فصلته لك عند علاء الحيايط، وحزاماً له طرة فضية ذات نقوش مذهبة. كل ذلك وأختك ماتزال في شهرها الثاني، ويجب أن ترضعها... أنت لم تسألني ما اسم أختك؟

— أختي؟

— نعم، ما اسم أختك؟

— ما اسمها؟

— حسنية... من الحسن. وتفاؤلوا بالخير تجدوه.

وضحك الرجل نشوان من هذا الخير الذي أهل عليه بعد انقطاع طويل، وقال لابنه:

— جددك سماني ثابت، على أمل أن أكون ثابتاً في حياتي وقد حاولت منذ أو وعيت على

نفسي. ولأعرف هل وفقت في ذلك أم لا. ولكن هذه المحاولة كلفتني كثيراً، ولست نادماً على ذلك. وقد سميتك حساناً، انسجاماً مع اسمي وتيمناً بأن تكون مدافعاً عن دعوة، مثل حسان شاعر النبي والآمال مازالت معقودة عليك.

وأراد ثابت أن يسترسل في أفكاره إلا أنه رأى في نظرات ابنه قلقاً وازوراراً. وكانت يده

السليمة تعبت بمحتويات الأشياء الورقية على الطاولة الجانبية. فاكنتى بهذا القدر، ادخر أفكاره لساعات الوحدة الطويلة، حيث السلوى الوحيدة هي تشجيع النفس بمثل هذه الأفكار. وكأثماً المرء في استرجاعه لها يلقي على نفسه محاضرة في الصمود. وقال الرجل:

— وزع الحلويات على جيرانك.

قال الصبي ببداهة:

— وكيف لا؟ آكل وأتركهم ينظرون إلي؟ سأقول لهم هذا من بلادنا... مثلما يقولون لي: هذه

من بلدتنا، هذه من قريتنا... بابا مالون البنطلون؟

— قلت لك أحمر... أو، لا... بلون التوت القرمزي... أو بلون كحلي على حمرة.

وتعذر على الرجل أن يصف اللون، فقال:

— منسجماً تماماً مع القميص... ستخرج به كالجنيدة... نعم، نعم. البنطلون بلون

الورد الجوري... الجميد.

سر ثابت لأنه أكتشف هذا الشبه الدقيق... «عمنه بلون خدك». والخذ هزيل

مايزال، لم يتورد بعد، ولكن العينين ذكيتان، تنظران بتفحص وعمق.

— وماذا كتبت أمي، بعد؟...

— أمك؟... كتبت...

وأخرج الرسالة المزركشة الحواشي بخطوط حمر وزرق، وبسط الورقة التي في داخلها، ونظر في السطور. لقد بدأ الحنين يذب في قلب ابنه ليستعيد رموز حياته الماضية، ويعرف أخبار الأهل والمحلة، شعر الرجل بنشوة، ونفخ صدره في الهواء، لأنه وجد في الرسالة ما يزيد هذا الحنين، على الأخص إذا أضاف من عنده شيئاً من المطيبات. وهو هوس أو وهم يملأ ذهنه، ويريد أن يمضي به حتى النهاية.

— أنت تذكر عباس الغزال.

— عباس الغزال؟

— نعم، ذلك الشاب المعتوه الذي كان جسمه أكداً من اللحم والشحم، ولغده يتدل كعرف الديك، ويسميه الناس بالغزال للضحك، والتندر. ليس ذلك الشاب الأنيق الذي كان يردد، وهو واقف عند ناصية الشارع: الناس عافوني. مايسألون عني. وإذا سألوه: ماذا بك؟ نهرهم، وقال: وما علاقتكم بي؟ لا، ليس ذلك. قابل عباس المجنون، المرهبل، الذي طردته أمه من بيتها في الشواكة فاحتفى بمجده في حي دراغ. كان جنونه الوحيد أن يدق أجراس البيوت، أو منبهات السيارات المفتوحة الأبواب. كم مرة دق باب بيتنا فطلعت أنت ولم تجده، فتقول: هذا عباس الخجل. ألا تذكر! كنا لانعرف الجرس الصحيح من الكذب.

ترك الرجل ابنه، يفكر... قال:

— تذكرته... اش ييه؟

— عباس كان همه الوحيد أن يثير انتباه الناس بتلك الأعمال، أو بأعمال أخرى.

وذات مرة — كما تذكر أمك في رسالتها — أمسكه جبار الحجيل، صاحب محل الخضراوات نفسه، والذي عنده فرسان يشغلها في سباق المنصور. أمسكه جبار، وقال له: اسمع، يا عباس، أنت تحاول إثارة انتباه الناس بهذه الأعمال الصبيانية التي لاتليق برجل له هذا الجسم الضخم، والناس لايلفتون اليك، ودق الأجراس لم يعد يثير انتباههم. كل الأعبيك لم تعد تنفع. وهم لايلفتون اليك مادمت سائماً مفلساً لاتستطيع أن تقعد في مقهى، ولانشتري حاجة من أحد، وينتفع الناس بك. يجب أن تكون لك فلوس ليحترمك الناس. قال له عباس: فلوس، فلوس، من أين اتي بالفلوس؟ قال جبار: لأعرف. ومثلما قال لي في الزمان الأول: إذا عندك خمسة دنانير أو عشرة، وراهننت بها على فرسي اللتين ستلعبان بعد يومين في سباق المنصور، فستكسب مالأً كثيراً. وفكر عباس، وفكر. ثم انسل الى بيته، أقصد بيت جدته، وفك جميع الصرر، حتى عمر على دنانير كانت جدته قد أدخرتها لتفجع يوم دفنها، حين يواتها الأجل. وأخذها عباس، ولعب على الفرسين، كما أوصاه جبار، وريح بالفعل.

— كم ربح؟ قال الصبي بلهفة.

— مئات الدنانير، كما يقال. لأدري، بالضبط. وأعاد الفلوس التي أخذها من جدته

الى صرتها . وصار يقعد في المقاهي ، ويشترى من الدكاكين ، ويخلق عند الحلاق . وفصل عند  
علاء الخياط بنطلونين واشترى قميصين أو ثلاثة ، وصار الناس يحترمونه ، ويبادرونه بالسلام .  
وحين يصادف أن يكون أحد في حديقة بيته ، ويراه ماراً ، يصيح عليه : تفضل ، استريح . أو  
دق الجرس قدر ماتريد . تفضل ، البيت بيتك . وصار أصحاب البيت يوصلونه الى حيث  
يريد ، وزال جنونه السابق ، وصار له جنون آخر ، هو اللعب في سباق المنصور ، والمقامة على  
الخيول . ولم يمض شهر أو شهران ، حتى صرف كل فلوسه ، ثم فك صرة جدته ثانية ، وخسر  
دنانيرها أيضاً ، وأحست به الجدة ، فزاحت تلعطم ، وتصيح : من سيكفني ويدفنتي اليوم؟ ..  
جبار الجيال ؟ اطلع ، اطلع ، ماريدك تعيش معي بعد اليوم . وعاد عباس الغزال على خياله  
القديم ، يدق أجراس البيوت ، ومنبهات السيارات . وزاد سخط الناس عليه ... هذا ، يا ولدي ،  
مافعله جبار الجيال بعباس الغزال . وعلى الله الاتكال ...

سهم الطفل وقال ، بهمس .

— وأين ينام الآن؟ مسكين .

أضف الأب من عنده :

تقول أمك أنه ينام الآن في مبنى سباق الخيل . ومن الآن للشتاء ألف عمامة تنقلب ...

— في طريقي اليك ، يا وأنا أنزل الى القطار تحت الأرض . نعم ، نعم ، يا ولدي ، لا تنتظر التي هكذا . يوجد مثل هذا القطار هنا ، وسنركبه سوية حين نخرج من المستشفى معافى عامر الذاكرة بكل شيء في طريقي اليك تقدم رجل مني ، وقال : كومندير ، هل تستطيع أن تستبدل هاتين القطعتين من النقد بقطعة واحدة لأدخل المترو . ها ، كومندير ؟ وكلمة كومندير . لعلك تعرف الآن تعني « الامر » وهو نداء يدل على الاحترام . ولأول مرة في حياتي يضني علي هذا اللقب ، ولو من باب المجاملة . والظاهر أن الكومندير كان يلعب دوراً كبيراً في حياه قوم اضطروا الى أن يصدوا العدو عن ديارهم مرات عديدة . وكان الكومندير مسؤولاً عن افراد وحدته . ليتنا نحس بنفس هذا الشعور ، بالمسؤولية إزاء الآخرين .

اضطر ثابت حسين أن يسكت ، لأنه أحس بغصة في حلقه ... المسؤولية إزاء الآخرين . أين كانت مسؤوليته ، حين أرسل ابنه ؟ ولم يعرف كيف يستمر في الحديث . رأى عيني ولده الدعجاوين مصوبتين نحوه . قال مديراً الحديث الى جهة أخرى :

— البروفسور كوزين ، مثلاً ، كومندير بالنسبة لك ، لأنه مسؤول عن حياتك وحياة هؤلاء الناس من حولك ... وأنا أيضاً لأتبرأ من مسؤوليتي إزاءك ، ولو قطعوا رقبتي ... وصمت ثابت حسين مرة أخرى . وأحس كمن يدخل في دهليز طويل ، وتعثر لسانه ، وارتبك ، لم يعرف ماذا يقص على ابنه . حذق في تلك الضمادة الصغيرة المستقرة على اليافوخ كالطاقية . وقال لنفسه : هذه هي التي سلبتني نعمة النطق بشيء مفيد ، هذه الجمجمة المفلووعة التي حلمت بها البارحة . وغابت عنه كل الحكايات ماعداها . وبدا له كل ماحكاه لأبنة محض هراء ، مجرد تسلية نفسه بخيبات الآخرين . بينما هو الخائب الأكبر . ترك ابنه وزوجته يسافران ، وبقي هو في مكتبه .

— ماذا بك تحذق بي ؟

— لاشيء ، يا ولدي ، مجرد أنني أحبك .

سكت الصبي . ولم يرد الأب أن يتقل عليه . فما الذي يدره ماذا يجري في داخله ؟ هذا السهوم ، هذا الصمت المستطيل ، هذه النظرات الشاردة تخفي وراءها تاريخاً . قال الصبي بعد صمت



— سأتمشى اليوم في الحديقة خلف المستشفى :

— عظيم... وبصحة ممرضة حلوة؟

— ليزا...

— أها! أهي التي أخذتك في تلك المرة الى غرفة التمارين؟ بأية لغة تتحدثان؟

— أنا أعرف الآن، يمكن مائة كلمة...

— لطيف، ياولدي لطيف...

وابتسم الرجل... فقد تذكر قصة من ماضيه، فأضاف يقول:

— هل تعرف ماذا حصل لأبيك، حين لم يكن يعرف غير كلمتين؟ « يا » و

« نو »؟

ابتسم الصبي. وطن الرجل أن ابنه تذكر نكتة حكاها له ذات مرة سرته بتلك التباشير بعودة الذاكرة الى ابنه، كلها أو نصفها أوشيء منها يربطه بماضيه. وبأهله وبوطنه. رائع إذا كان حسان قد تذكرها. ولكن ابتسامه الصبي خبت. ومع ذلك فقد راح يقص عليه قصته مع بائعة الأحذية الألمانية.

— حدث ذلك في ألمانيا، ياولدي، في زمن قديم، في أوائل شتاء أوربي قاس. وكان أبوك، هذا الجالس أمامك، متشرداً لفظته سوريا ولبنان، لأسباب ستعرفها فيما بعد، حين تعرف أمور الدنيا، وأحوال السياسة. وكان أبوك المتشرد قد خرج من بغداد في الصيف، وبملابس الصيف، فوجد نفسه في اوربا في أواخر خريفها البارد الممطر الشبيه بشتائنا، وجد نفسه يبحث عن مأوى له في مدينة المانية نائية. وكان حذاؤه خلال هذا التجوال القسري لحق أن يتهراً، فكان يحس بكل أمطار أوربا للزجة تحت قدميه. وكان يتحامل على نفسه، ولا ينفق إلا الشيء الضئيل على الضروريات من الفلوس القليلة المتبقية لديه، فلا يشتري حذاء لنفسه. وذات مرة، في لحظة ضعف قاتلة توقف أمام مخزن للأحذية اللامعة لمجرد أن يتمتع بصره بالأحذية السليمة، لعله يحس بشيء من الدفء تحت قدميه، تماماً مثل ذلك الجائع الذي كان يؤدم خيزه الناشف برائحة شواء منبعثة من مطعم كباب. قريب ولكن أباك، بدلاً من أي يحس بالدفء، كما أحس ذلك الجائع بطعم الادم عند وقوفه قرب محل الشواء، شعر أبوك بأن أحوال اوربا كلها تنغلغل بين أصابع رجله. فدخل مخزن الأحذية في لحظة ذهول مشينة، وأشار للبائعة الى حذاء أسود سميك للعمل، فحملته اليه البائعة، فاستخدم أول الكلمتين اللتين يعرفهما... يا! أو ماتت البائعة الى رجله تريده أن يقيس الحذاء على رجله. ولكن أباك استخدم الكلمة الثانية رأساً: « نو! » فقالت البائعة: « يا! » فرد عليها أبوك بـ « نو! » وظلا يتحدثان باليا والنو الى أن فطنت البائعة الى حالة قدميه المهروستين بالوحل. قالت: « أين مومينت! » فخنم أنها تقول لحظة واحدة، وما أن انتهت هذه اللحظة الواحدة، وهو كبنودل الساعة يتراجع بين ترك المخزن

والانتظار ، حتى أطلت البائعة ، وأومات اليه تعال ! فذهب اليها بين مصدق ومكذب ، فأزاحت ستارة . وبالعظمة القلب الانساني ! تصور ماذا وجد . وجد اجانة من الماء الدافئ ، يتصاعد منه البخار ، وجنيها كرسي ... يعني ، تفضل اغسل رجلك ، والبس الحذاء الجديد . وانهارت كل مقاومة ابيك إزاء اغراء الدفء والبخار والابتسامة العذبة ، وكل شيء . وصارت اليا والنو خارج الصدد . قعد أبوك ، واخرج رجليه من وحول اوربا ، وادخلها في حمام من حمامات بغداد العظيمة ، وشعر بالشعيرية اللذيذة تسري في ظهره وساقيه . إذن ، يستطيع الانسان أن يتفاهم أحياناً بدون كلمات ، لأن حاجاته الأولية واضحة مفهومة من غير كلمات . وكان أبوك في لحظة ضعف مماثلة ، قد اشترى له جورباً صوفياً ، فأخرجه من جيبه ، لبسه على قدميه اللدافيتين النظيفتين ، ووضعهما في الحذاء السميك النعل . ولتسقط أوحال اوربا كلها ! وشكراً بانحناء من الرأس ... هناك أشياء ياولدي ، لاحتجاج الى لغة .

سكت الرجل ، فقال حسان :

— انظر الى ذلك الولد على بعد سريرين مني ... أنا تتحدث معه بغمزات العيون . ولم يقل بالاشارات . وفسر ثابت ذلك تفسيره الخاص . كانت اليد اليسرى السليمة مستقرة على حده ، والأخرى خلف البطانية .

أضاف حسان :

— إنه بعض لسانه ، ولايتكلم .

نظر ثابت الى الصبي . كان أشقر الشعر مورد الخدين ، عيناه تلوحان من بعيد كنجمتين وضئبتين رماديتين ، وقال ليضفي على الخزن طابع المفرح :

— ولماذا لايستخدم عينيه ، إذا كان له مثل هذين المشعلين الوهاجين ؟ سلك الاشارة .

أتعرف سلك الاشارة ، يا احسان ؟ انه فرع مهم في كل جيش يستخدم لغة بليغة .

— أما هذا الراقد الى جانبي فيقاسمني كل ماتأني به جدته من مرى وكعك وحلويات ، وأعطيه أنا ماتجلبه من فواكة ، فيقول عندي .. جاؤا به من القرية ، اصطدم به موتوسيكل ، رماه في الساقية بين الاشجار ... رجلاه ...

الثفت ثابت ، فرأى الصبي يتسم ، وكأنه يشعر بأن الحديث يدور عنه ، ولكن لايدري بالضبط عن أي جانب منه . وكان صدره المكشوف قليلاً يبدو من تحت البطانية ممتلئاً عريض المنكبين ريان مترعاً بدم الصبا .

— صار لك أصدقاء ، يا احسان ... ستعرف عنهم الكثير ، ويعرفون عنك الكثير . وهذا

أساس الصداقة ... المشتركون بمصير واحد أكثر ألفة من الآخرين . وستلعب معهم وتفرح . هل تتذكر كيف كنت تلعب مع أصدقائك في بغداد ، عند الشطيط ، وراء دارنا ... تتذكر ؟

تتذكر ؟

ألح عليه بالسؤال يريد أن يحرك ذاكرته الراكدة مثل ماء نهر الخر الذي يسمونه بالشطيط في محتلمهم، لما لم يجد غير الصمت رفع بصره الى عينيه فرآهما غائبتين عنه، تحديقان في نقطة شائعة تبحثان عن شيء مفقود في مجاهدة وعناء فأراد أن يساعده على التذكر .

— كنت، ما أن تأتي من المدرسة، وتتغدى حتى يبدأ نشاطك الاخر ... نشاط عفريت، فقد كنت تؤجل دروسك للمساء. كنت صياداً ماهراً لتلك مخلوقات الرزقة المسماة بالضفادع، المنقفة الناطة على الشطيط. وهو نهر راكد تكثر فيه الضفادع، ويقال أيضاً وثعابين الماء، ولكن أحداً من لداتك، ولا الأكبر منهم قد اصطادها ... أما الضفادع فكانت أكفكم الصغيرة تعرف كيف تمسكها، ولاتنزل من بينها. وكنتم تتاجرون بها ... أعرف ذلك اعرف ... مع تلاميذ الصف الثاني أو الثالث المتوسط، ليشرحوها في درس الأحياء ... تتذكر، بالطبع، تتذكر ... كنتم تتبادلونها معهم بأشياء غريبة من مخلفات الأجداد. أنت تتذكر صندوق الساعة الحائطية الفارغ الذي جلبته الى البيت في احدى غزواتك، وكأننا لامتلك ساعة، وحملته كما يحمل صندوق كان عتيق، ووضعتة قرب سريرك أولاً، ثم صرت تبعده عنك، كلما فترت رغبتك فيه، حتى وصل الى أقصى الحديقة، حيث أكياس السممت الفارغة، وهيكل ماكنة خياطة مستهلكة، أقصد الماكنة، التي تدار بالرجل، ويرمى عتيق موروث من جدتك التقية فاطمة بنت عبود. وكنا نرى كل الأعيك ونعاتبك عليها أحياناً، ونصرف النظر عنها أحياناً أخرى ... إلا في تلك المرة التي اجتمع فيها حي دراغ كله نائراً ضدكم ... أنت تذكر، بالطبع ... وكان أحد تلاميذ المتوسطة المسمى حسون مطلق، اعترف، على أثر ضرب تلقاه من يدي أبيه — من اسطوات البناء القدامى — بأنه اشترى منك، ومن صاحبك علوان ضفدعة لتشرحبها، لبروا كيف يظل قلبها ينبض بعد التشریح وقتاً طويلاً. وكان هذان العفريتان قد سمرا رجلها ويديها بدبابيس على قطعة من الخشب المعاكس، وشرحاها، وشقا بطنها، وتأكدنا من أن القلب، بالفعل، ينبض بعد التشریح، لما شعنا من النظر الى هذه الحقيقة العلمية، وصمت القلب أخيراً ... وقف لايعرفان ماذا يفعلان بجهدهما المشترك، بهذه التحفة المثبتة بأربعة دبابيس ... عندئذ سلماها لك ولحسون، بلا مقابل، فأخذتماها فرحين، ككل شيء يعطى بلا مقابل ... وبعد أن امعننا النظر فيها، وقلبتاها ظهراً على قلب، زهدتما بها أيضاً، ولم نعرفا، ماذا تفعلان بها، وأيديكما لم تطاوعكما على رميها، وأخيراً استقر رأيكما على أن تستخدمها كشيء يثير الفضول، فنبتها، في آخر المساء، على واجهة دكان عباس الجيال، بائع الخضروات في شارعنا ... وحين جاء هذا الرجل في الصباح الباكر، في سيارته « البيك آب » المحملة بالخضروات، وجد شيئاً غريباً على دكانه ... تفرس فيه ... لم يفهم شيئاً منه، وكانت أمعاء الضفدعة لحقت أن تسقط، ولم يبق منها إلا تشكيل غريب غير معروف للناس الاعتياديين، مثل عباس الجيال، فقال لنفسه: هذا سحر ... هذه تعويذة شر وضعها لي ذلك الذي جاء

ليشتري مني دكاني « سرقفلية » فرفضت والآن جاء ليخرجني بقوة السحر والشياطين ... فراح يصرخ في الصباح الباكر : ياناس ، سحروني ، سحروني ... يريدون أن يشدوني ! فجاء الناس متراكضين ... ومنهم من جاء للشراء بحكم العادة في الصباح الباكر ليجد الخضروات طازجة . ومنهم من جاء للفرجة ... تجمهر أهل الشارع كلهم وعابروا السبيل يتفرون في هذه التعويذة التي لحقت أن تسود خلال الليل وتتقعر ... ولم يكتشف أحد شيئاً منها ، لأن أشجع واحد منهم لم يقترب منها أقل من متر . وظلت الضفدعة معلقة حتى جاءت شرطة النجدة ، فرفعتها بطرف حربة ، فسقطت الخشبة على الأرض ، وأفلتت الدبابيس ، وانقلبت الضفدعة المستشهدة في سبيل العلم على ظهرها . وعرف الناس سر المسألة . واهتموا أولئك التلاميذ العفاريث الذين يتصيدون الضفادع من نهر الخر ... وأنت أولهم ! أشاروا اليك باصبع الاتهام ... وجاء عباس الجيال يشكو منك ... انظر ماذا فعل ابنك بي ! وأنا الذي أريد منفعتك ، أنا الذي كنت أريد لك أن تشتري سيارة بدلاً من أن تنحشر في باص عمومي ، وأنت الرجل المحترم المثقف . وأعدت له ، وقلت سأعقبه . ولكن مازلت مصراً على رفض عرضك الكريم . وكان عباس الجيال هذا ، وأنت تذكره ، ذلك الرجل الضخم الجسم الشبيه بجاموسة تمشي على رجلين ، يملك سيارة يشغلها تكسي ، وحصانين يركضان في سباق المنصور ، ويربحان الكثير . فجاء لي ذات يوم ، وقال لي : عندي حصانان في الريسز ، سيبحان غداً بالتأكيد . فلماذا لا تنصص عليهما . الدينار بثلاثين . قلت : يأبأ فلان ، اعفني من هذه الشغلة ، أنا لأزاول القمار . فقال : وهل تعتبر ذلك قماراً . هذه رياضة ، وأنا أريد أن انفعك . بالفعل ربح الحصانان ، ولو كنت قد شنصت عليهما لربحت أكثر من ألفي دينار . ولكنني فضلت أن اشتري تلك السيارة العتيقة لقاء ستائة دينار بالتقسيم ، والدفعة الأولى مائة وخمسون ديناراً ... تلك السيارة أم الباب المخلوع ، المصبوغ بالأرجواني ، غير صبغها الأصلي ... عربانة برشقة ، ولكنها تمشي بالبنزين . أنت تذكر بالطبع ، كنت آخذك فيها الى اوروزدي باك ... ومعرض بغداد الدولي ، ومنتزه الزوراء ... ورفع ثابت حسين بصره الى ابنه ، فرآه يبتسم ، فشع في داخله فرح بلوري ، وانغمر هو الآخر في تذكر جزء من حياته عزيز عليه ، أيا كانت تبدو الحياة كدحاً متساوفاً ... مجرد عملية حسابية ... كسب ، وصرف مافي الجيب ، وعلى الله التكلان .

بعد فترة صمت غير مقصود قال ابنه :

— باري ...

— باري ؟

ونظر الى ابنه . كان جفناه مسبلين .

— الحيال ... تقصد ذلك الذي كان يخلف أباه في الدكان بعد الظهر ، ذلك الفأر ؟

— هو .

— عظيم ... ذلك الفأر ابن الفيل، كما كنا نقول ...  
ضحك الصبي ... ربما عاد الى ذاكرته ما كان الناس يقولون عن ذلك الصبي الضئيل  
الجسم، ابن عباس الجيال، شجعه أبوه:  
— عظيم يا حسان، قل كل ما يريد على خاطرِكَ ... أعد على نفسك كل حياتك  
السابقة ... حتى ... حتى ... حتى تلك السكائر التي كنت تسرقها من علبتي، تعطئها  
لحمزة صانع الكواء ... ليدخنها، وينظف صدره، كما كان يقول لك، باعترافك أنت. كنت  
أشك في أنك كنت تدخن السكائر، فكنت أقربك مني، وأقبلك من فمك، حتى أتقين من  
الرائحة ... كنت تأخذ سيكارتين أو ثلاثاً، وتتصور أباك لا يحس بها بين سكائره الكثيرة ... بينما  
كنت لاتعرف أنني كنت أعد السكائر التي أدخنها في اليوم الواحد لأقلل من التدخين، على  
أمل أن أتركه ذات يوم، في المستقبل المنظور، وقد تركته بالفعل ...  
وامتلاً الرجل فرحة من ذلك التواشج العضوي الذي نما بينهما. وكان يود أن يقول أشياء  
كثيرة أخرى، مشتركة بينهما، لولا أن المرضة جاءت وأخذته منه وعند انصرافها همست له:  
البروفسور كوزين يريد أن يراك ...

كان مكتب البروفسور غرفة صغيرة فيها منضدة كتابة بنية فاتحة، وكروسي وثير عريض  
واحد، وعدة كراسي أخرى اعتيادية وعلى الجدران تتدلى صورة المخ بفلقتيه البارزتين بلون وردي  
زاه. نظر ثابت الى الصورة نظرة خاطفة، واقشعر بدنه.

— اجلس، تفضل، كيف الأحوال؟

— شكراً، لأبأس ...

— لماذا لأبأس ... صحة ابنك في تحسن مطرد.

— اعتقد ذلك ...

— وبدأ يفكر في ماضيه؟

— نعم صار ينطق بأشياء تخص الماضي ... اعتقد أن عقله أخذ يشتغل داخل

جمجمته.

ورمق ثابت المخ المفلوق، وكأنه يرفع نفسه الى السماء طالباً منها الرأفة.

— جمجمته!

ردد البروفسور كوزين هذه الكلمة، وراح ينود برأسه. وصمت. وأخذ يلعب بنظاراته  
الموضوعة على المنضدة، مستقرة على أربع نقاط. انتظر ثابت ماسيقوله البروفسور كوزين ...  
انتظر مرتجف الأعصاب، لأن تلك الكلمة جعلت البروفسور المختص بالجملة العصبية يستغرق،  
وينغلق على نفسه. وأخيراً قال:

— إن هذه الجمجمة العزيزة تحتاج الى ترقيع .  
لم يكن ثابت يعرف هذا من قبل ، ففغر فمه في ذهول واندهاش وكأن كل مشاريعه قد خابت . ولعل البروفسور كوزين فطن الى ذهوله ، فقال :  
— أو بالأحرى الى تجميل ... ما يزال هناك فراغ فيها لا يستره إلا الجلد والشعر ، ونريد أن نسد هذا الفراغ ، نقي الدماغ من تقلبات الطقس ، ومن كل عارض .  
ولما رأى البروفسور أن الرجل ما يزال يبخلق فيه بعينه المبهوتين المروعتين أضاف قائلاً :  
— انها ليست عملية صعبة ... الأشياء الصعبة ذهبت مع الماضي ، وزالت الحنة ، ولكن الصبي ما يزال صغيراً ، ونحن نعمل ، أنت وأنا وكلنا من أجل المستقبل الطويل . وهون له الأشياء وقال :

— ولكننا نريد موافقتك ... الصبي قاصر . وأبوه الى جانبه ، والقانون والعرف يقتضيان منا أن نأخذ موافقتك .

وصمت ليرتك الرجل يفكر . قال ثابت اقراراً بالواقع :

— الرأي رأيك ... مادام ذلك ضرورياً .

— ضروري جداً للحاضر وللمستقبل ، ولطول العمر .

— كما تراه .

ورمق ثابت الجمجمة من جديد . قال البروفسور :

— سنجري العملية في الأسبوع القادم — ومد يده الى الأمام على سطح المكتب —

ولكن هذا لا يعيق مجيئك كل يوم ، والاستمرار في عملك . لا تجعله يسهر . املاً قلبه بالأحاسيس . هل يتجاوب معك ؟

— انه ساهم في معظم الوقت .

— لا يهم ... سيتجاوب .

شكه المحرز ، فاستيقظ في المزيغ الثاني من الليل ، وتلملم وانسل اليه السخبط على نفسه . الى متى هذا ؟ في الحل والترحال ؟ سيأرق الآن ساعات الى أن يأتيه النوم قبيل انبلاج الفجر . وأشعلت هذه الفكرة اللهب في حواسه . فتح عينيه على سعتها ، وأزاح الدثار عن جسده ، وقال لنفسه في ضيق ، وهو يجلس على السرير : الأرق داء الانسانية ، لا الكحول ، ولا المخدرات . وزفر في حنق على نفسه . وقال في سره : إذا كانت تريد أن تعذبني ، فلابدأ أنا بتعذيبها . وأسند كوعيه على ركبتيه ، ورفع رأسه محديقاً في نقطة واحدة . وحاول أن يفكر في شيء ، جامداً كالصنم ، متنفساً بثقل ، ولكن الأفكار راحت تنبع من لامكان ، وتغزو رأسه فيطردها ، فتعاود الهجوم فيصدها . وظل يصارعها وقتاً طويلاً ، إلا أن غلبته أخيراً ، فانثالت عليه كالجراد . نفض رأسه للمرة الأخيرة ، وحاول أن يتلهى بشيء . تلفت فيما حوله . رأى شيئاً أبيض على الطاولة قرب

السريير . اشعل الضوء، ورأى الظرف المستدير الذي تركه يحيى سليم يوم أمس ليقرأ شيئاً منه . فتح الظرف، وأخرج أوراقاً دقيقة مكتوبة بخط كبير . وقرأ العنوان : « الفروسية المهزومة » . ولكنه ترك الأوراق زاهداً . لم يشجعه العنوان على القراءة . فهو الآن مهزوم أمام الأرق هزيمة نكراء . ولكنه عاد فرفعها ونظر فيها ، وقال لنفسه : عجيب ! ألا يصلح هذا عنواناً للفيلم الذي ابتكره لحسان ؟ هزيمة للافروسية . أم الفروسية استخدمت لتجميل الهزيمة ؟ كأن تقول : اساءة غير متعمدة ، أو عن حسن نية . ولكن ثابت عاد فترك الأوراق واقترب من النافذة فرأى قرص القمر معلقاً أمامه فوق النهر ، مدوراً واسعاً كقرص الشمس ، يرسل سجاده المتلألئة عبر النهر ، وراء الكنيسة ، فتبدو كجسر فضي يربط ضفتي النهر ، مأمون لعبور الآخرين من الضفة الأخرى ، حيث المصنع الأحمر الممتد كالسور . وبدأ القمر لثابت حسين غريباً مضحكاً ، يطل بوجهه المنمش على المدينة الغافية . وضحك ثابت في سره ، وقال كم رجلاً مثلي في هذه المدينة . رفع بصره الى القمر ، وتأمله وأسف عليه مهملاً خزبان مستوحشاً لايلفت نظراً ، ولايوحى إلا بشعور كتيب مقهور . ومع ذلك ، فهو مثل أي قمر يطل على نهر أو بحيرة ، يرسل بساطه على صفحة الماء للعابرين في الخيال الى دنيا الحلم . وظل ثابت يتمله ، ويتمله ، حتى أحس بالخيبة واللاجدوى من تأمله ، وملّ الوقوف ضائعاً في الليل الصامت ، فترك النافذة . وقعد على السريير ، لايعرف ماذا يفعل . تناول أوراق يحيى سليم ثانية . وقرأ : ايه ، أيها الشيخ الذي يطاردني ... واستقر ، وتصور يحيى سليم بصورته الاستفزازية ... أي شبح يطارده ؟ وعادت اليه لواعجه القديمة . كأنه يخاطبني ، كأنني أنا الشيخ الذي يطارده . ربما يعتري تشخيصاً للفشل . يصب جام غضبه على من خلاله . وتوجس من مواصلة القراءة ، وكأنه سيرى تلميحات لتاريخه الشخصي . هو ترك الأوراق ثانية ، وراح يفكر بيحيى ... في الثلث الثالث من الليل ، يفكر في ذلك الذي أرق الساعات الأولى من الليل ، ثم استسلم لنوم عميق . ففكر في ذلك الذي كان يقول له : هل قرأت قصة اسمها الشبيه لدستيفسكي ؟ اقرأها وستفهم . الأصل والشبيه كلاهما تتلاطمه أمواج السياسة . فأثر أحدهما البقاء في العراق ، ورمت الآخر احدى الأمواج العاتية ، فألقتة خارج الوطن ، يتلمس مورداً للرزق . كان منذ البداية بلا شيء يكسبه بعض الطمأنينة والثوق في النفس ، وقدراً قليلاً من النجاح . فكم سبيلاً طرق ، ومحاوله أتى ! حاول الدخول الى الكلية العسكرية ليصير ضابطاً يزهو بيزته العسكرية ، ويسمع الجنود كلماته ، ويقود الوحدات . ولكنه رفض لأسباب تتعلق بشهادة حسن السلوك ، ثم اشغل بوظيفة بمديرية التقاعد بين الأضابير ورائحة الرطوبة العفنة ، تماماً عكس طموحاته . وسجل في القسم المسائي في كلية الحقوق ، وفي سنته الأخيرة خطب فتاة من أسرة موسرة ، كان لعائلتها بيت جميل يطل على دجلة . ولكن الفتاة خيبت ظنه ، أو طعنته بالصميم . التحقت ببعثة حكومية الى مصر ، ومن هناك أرسلت له رسالة تفسخ بها الخطوبة .

أبعد ثابت حسين أوراق يحیی عنه، وشعر، في هذا الهزيع من الليل، بصحو كأقبح ما يكون الصحو. وتذكر ليالي مؤرقة أخرى عاشها في ظرف آخر، ليالي كان ينام على الأرض ورأسه الى الحائط، والأنفاس تتردد ثقيلة فيما حوله، وطبقات متفاوتة من الشخير. كان يلف جسمه في البطانية الداكنة، ويشبك ذراعيه تحت رأسه، وينظر الى السقف الترابي المخدد. وحين يكون الباب مغلقاً من الخارج بالصفائح الفارغة، كان لا يستطيع حتى الخروج الى المرافق — كان الخروج اليها في الليل يعتبر متعة وتسلية، أيام فك الحصار — فكانا يكتفي بأن يلتفت الى الباب الصغير يترقب ذوبان الظلمة من خلال الصفائح الصدئة وطلوع الصباح واباحة الحركة. أما الآن فيستطيع أن يتحرك! وتحرك. غادر سريره وعاد ثانية الى النافذة، لم يعد القمر وحده ينير الأرض، بل أخذ لون رمادي باهت يشع من الأرض نفسها، نابعاً من الامكان. وبدأ القمر معزولاً تماماً، كخائب الرجاء ربما كيحيى سليم، حين تلقى تلك الرسالة المشؤومة من خطيبته السابقة تعلن فيها انعطافاً آخر في مجرى حياته. وحاول يحيى سليم محاولات أخرى، في ميادين أخرى... حتى رسا على الكتابة. كتب المقالات اللاهبة الساخرة، والقصص القصيرة عن شبان خائبين مثله يطعمون طعنات أئمة من مخلوقات قاسية متخشبة العواطف، بل وحرب حظه في المسرحيات من فصل واحد، كل ذلك ليجد له مكاناً تحت الشمس، على حد ذلك التعبير المقتبس من فيلم سينائي كان شائعاً في ذلك الوقت... أو أن يكون فارساً، على حد تعبيره هو، الآن بعد تلك المسيرة الحافلة بالمطبات. وشعر ثابت حسين باشفاق اليم على صديقه.

ترك ثابت النافذة، واستلقى ثانية على فراشه، وشبك أصابع يديه تحت رأسه. وفكر مع نفسه تفكيراً آخر، وقال: لا، لا تسرف في ادانتك لصديقك، ولتصويره بالصورة المعاكسة لك فنتيت بذلك صحة نظريته في الأصل والشبيه (أينا الأصل واينا الشبيه) تلك هي المشكلة! تعظه بأن يكون لحياته مردود. وأنت، هل لحياتك مردود؟ ربما هذه كلمة تقال للآخرين ويراد بها تشجيع النفس لاغير، لم شتات الثقة بها، خوفاً من الشلل أو الانهيار... ذينك الشبهين اللذين كنت مثل العديدين من أصحابك وغير أصحابك تخاف أن يسير أحدهما وراءك كذلك... الأفضل أن لاتفكر بذلك، واترك الرجل يجرب ويعيش... الأفضل لك الآن أن تضع لك برنامجاً آتياً نافعاً، أن تقهر الأرق، وتستسلم للنوم.

وقال ثابت حسين بصوت عال في الغرفة المظلمة:

— هيا، يانوم، أرجوك، أنا متعب.

واغمض عينيه، وارخى مفاصله، وتقمص بكل توتره النفسي، هيئة النائم، الخالي الذهن من كل فكرة، بل وتائب، وانتظر... انتظار الملول... بدأت الصور تتراكض في ذهنه كالفتران المذعورة. طردها. عادت استرخى لها... جعلها تطغى عليه... أليس ذلك الشعور



الغريق في أحضان النوم .

وفي تلك الأثناء كان صالح جميل قد استيقظ ملتهب الخوف، لزج الفم، فمد يده الى يساره، دون أن يفتح عينيه — جفناه ثقيلان — وتلمست يده قذح الماء على الطاولة الصغيرة الى يمينه، حتى وجدته، فرفع جسمه على كوعه، وشرح يعب الماء، وعيناه مازالتان مغمضتين . حتى أتى على ما في القذح، ووضعه في مكان قرب الطاولة وسرح جسمه، وتكور واستسلم لمفعول بقايا الخمرة في معدته . وجاءه النوم هيناً مطواعاً ... بينما كان يحيى سليم يتقلب منزعجاً من شيء ما جعله نصف مستيقظ، ثم تضخم ذلك الشيء المزعج في داخله حتى استيقظ تماماً وتذكر حينذاك الشيء الذي أثار ازعاجه، وجعله يستيقظ ... وراح يفكر في الحلم الغريب الذي انتهى باستيقاظه . رأى نفسه، في الحلم، يقود ابنه فريداً من يده، ويسير في أحد شوارع مدينة عربية شبيهة ببغداد، أو بغداد نفسها، ولكنها مشوهة . وكانت نادية قد دخلت مخرباً للملابس، ولم تخرج . وكان يسير مع ابنه على مهل لتلحق بهما . ولكن الانتظار يطول، يحيى يتضايق ويقلق، وفريد يوشك أن ييكي . وذاك هو الذي أثار ازعاجه . فقد كان قبل لحظات منسجماً معه غاية الانسجام، ومتبادلاً معه الحديث برقة . يضطر يحيى الى دخول مخازن غريبة بحثاً عن نادية، ولكن المخازن نفسها مزدحمة وفي فوضى، ولا يستطيع فيها أن يشق طريقه . وفجأة يلتفت يحيى سليم فلا يجد ابنه ... ضاع في الزحام . رفع يحيى سليم جسمه على كوعه، فرأى الأشياء القليلة في غرفته قائمة في أماكنها، والنور ينهال من النافذة العارية . وانقلب علوان شاكر على جنبه الآخر، فأحس بدفء حريري يدغدغ صدره، وأسفل بطنه، دبت رعشة في جسده، وأعادت له بعض حواسه . كان الجسد الممدد الى جانبه يشع حرارة وأيقظ نداء غريباً في أعماقه . فالتصق بمصدر الدفء التصاقاً تاماً، ورفست رجلاه مرتين أو ثلاثاً، وارتمت ذراعه فوق الجسد . تبعت ذلك حركات . وهمس علوان : آه، ياعمري، ياعمري ... وغاب في لذة عجماء . ثم استرخى مغمضاً عينيه، هامداً معقود اللسان ... وبقي على هذه الحال حتى سمع النائمة الى جنبه تقول :

— ترى، ماذا كنت تقول للأخرى؟

عادت اليه بعض الحركة . سحب جسده . ولكنه لم يتكلم، حتى قالت ثانية :

— ها، علوان، صحيح ماذا كنت تقول لها؟

تأوه طويلاً :

— أو ووه ! رجعتنا عليها؟

— لأصدق بأنها كانت خلوة بريئة، وأمامكم أم الكبائر ... لأصدق .

— طيب، لاتصدقي . ماذا أفعل لك أكثر؟

صمت ... ثم :

— كنت أتصورك تنتظرنني في المطار .

— لم تصلني البرقية .

— ضاعت ؟

— لأعرف ... أسألي البريد ... ستنقصين حياتي .

انتفضت وقعدت على السرير .

— انقص حياتك؟ بهذه الكلمة تجابني؟ جئت اليك لأعرف صدق عواطفك التي

كنت تسكبها في أذني . صدقت بالرسائل التي كنت ترسلها لي من سوريا قبل الزواج ...

جئت أعرف من أنت ، ياأبا العواطف المزيفة .

وحتى الساعات الأولى من النهار مضى ثابت حسين مايقراً في : « الفروسية المهزومة » .

« ... أتذكر أنك قلت ذات يوم : مادام الأمر تم وانقضى فلماذا لا تجرب حظك مرة

ثانية ، أنت أبو التجارب . جرحنتي . يعني الحب أيضاً خاضع لاجراء التجارب عليه . يعني ،

مثل المبادئ ، الأحزاب ، المنظمات ، إذا انغمست بواحد أو واحدة ولم يعجبك أو لم تعجبك

استبدلته ماأنت معه بآخر غيره؟ أهذا ماتقصده؟ الحب لا تنطبق عليه هذه الممارسة الموجودة

فعالاً . أو على الأقل بالنسبة لي ، أنا المهزوم دائماً ، تصور ! عندما أفضل في حب ، أظل أحس

بوخزات في وجداني . ولذلك ، ومن أجل خاطرك ، يا صاحب البوكس الحديدي ، حاولت في

البحر أن أجرب حظي ... وسخر مني القدر هذه المرة أيضاً . وسأقول لك كيف .

ذات مرة ، وأنا مستلق على الساحل ، ورجلاي يداعبهما الماء ، أراقب رئات البحر

البيضاء والبنفسجية ، من شتى الحجم تنفس ، وبتنفسها تتحرك غائصة الى العمق ، وطالعة

بكل شكلها الشبيه بالفطر ، وصغارها ترمي على الساحل كفقاعات الصابون الكبيرة ،

أحسست بشيء مطاطي حار يصطدم برأسي من الخلف . رفعت رأسي ، وغرست مرافقي في

الحصى . ورأيت كرة مطاطية بالأزرق والأبيض تستقر بالقرب مني أمسكتها . تلفت يمينا وشمالاً .

بعد قليل رأيت طفلاً صغيراً عارياً ربما هو في الثالثة من عمره يتدحرج نحوي ، كان يمد ذراعه

نحوي . اللعنة ! تصورته فريداً في حين كان في سن لم يسعدني الحظ بأن أراه فيها . كان الطفل

يمشي بصعوبة على الحصى الناقء المصلصل . ولما تركتها له لم يلحق أن يمسكها أو يحتبها بذراعيه

فتدحرجت نحو الماء . نهضت ، وأمسكتها له ، وأعطيتها إياها . القاها في الماء عمداً . انتشلتها من

الماء ، وأعطيتها له . ألقاها ، أمسكتها وأعطيتها له . وهكذا ظل الطفل يعبث معي ، وأنا أجاريه ،

وأشعر بلذة من مجرد أن أنتزع ضحكة من فمه . الصغير وصرنا نلعب بهذه الصورة وقتاً لأعرف

كم ، وأنا فرح ، وكأنتي ألعب مع فريد . ولكن في أعماقي كنت أحس بأن أحداً يراقبنا ، أمه أو

أباه ، مما شجعني على أن أتقن عملي . والطفل راض مسرور ضاحك . ولما تعبت من الرواح

والجمي . والطفل واقف في مكانه ، أمسكت بالكرة ، واستلقيت في مكان أناكفه ، بكى الطفل .

في تلك اللحظة سمعت صوتاً نسائياً يناديه من ورائي: البوشا!، وحين التفت رأيت فتاة في لباس بحر مورد تقبل نحونا تحمل في إحدى يديها كعكة، وفي الثانية « ايس كريم ». خجلت. بررت تصرفي بكلماتي مفككة.

— كنا نلعب، فتعبت أنا ولم يتعب هو.

قالت:

— دائماً هو هكذا.

وشكرتني، وقادته عبر زحام الأجساد الى مكان في أعلى الساحل المنسرح. عدت الى وضعي السابق. رأسي على الحصى، ورجلاي في الماء. ظلت صورة الطفل والفتاة المنحنية عليه مسمرة في خيالي بألوانها الطبيعية الجميلة. لم تكن تشبه نادية في قليل أو كثير، ولكنني، الملعون، تصورتها هي! ربما كان سيحدث، أو حدث لهما بالفعل ماحدث لي مع الطفل والفتاة. وربما دارت في رأس ذلك الرجل المتخيل أفكار رعاء كتلك التي دارت في رأسي لحظتها. الملمت نفسي وغادرت الساحل. ولكن من سخرية القدر انني، وأنا أدخل المطعم على الساحل، سمعت صوت طفل يقول: « عمو ». التفت فرأيت الطفل وأمه ورجلاً آخر لا بد أنه أبوه يجلسون على مائدة مجاورة. حبيته باستحياء، وحييتها. في ذهني ربطت هذا النداء بذلك النداء الآخر اللعين، وتقلص قلبي في صدري. صارت هذه الـ « عمو » تغيظني بشكل عنيف، لأنها تربطني، من حيث لأدري بقصة مأساوية. اخترت غذائي، ورحت افتش عن مكان، وإذا بالفتاة توميء الى بذراعها أن تعال اجلس معنا. هناك مكان شاغر. ولما اقتربت ووضعت الصينية على المائدة كانت هي تسقي الطفل آخر جرعات قذح الفواكة المنقوعة. وبعد ذلك نهضت، وتمنت شهية طيبة، وانصرفت مع الطفل، وبقيت أنا والرجل...

ترك ثابت حسين قراءة الأوراق بينما كانت زوجة علوان في جانب آخر من المدينة تقول لزوجها:

— أنا ذاهبة. أريد أن أرى المدينة. أشم هذا الهواء العطر. وربما أجرب حظي... بس

أنت وحدك؟

صاح بها علوان.

— أحذرك من هذه النغمة، أحذرك عن جد.

وكانت رسمية قد لبست ثيابها، وتزينت للخروج. قالت:

— أنا ذاهبة الى الفندق لوحدي. أريد أن أتعرف على المدينة لوحدي.

وهبطت الى الشارع، وأذهلها أن ترى بنات جنسها يسرن بحرية واحتشام، مندفعات الى

غايات جادة، متحديات، مرحات، خفيفات الظل، لسن بحراسة رجل. وأعجبها أن تركب حافلة كهربائية كانت تسوقها امرأة، ليست بالقياسات التي الفتها بالطبع، ولكنها امرأة على أية حال، في عهدتها أناس من بينهم رجال، امرأة شجاعة، تأمر وتتهي، وتقود، وتتحدث بمكبر الصوت وشجعها هذا كثيراً، وتخفف احساسها بالضيق، وحب اليها مع هذه القوافل من الناس، في هذه الشوارع العريضة الزهراء الى مانهاية، وتتكلم مع تلك الفتاة الموردة الخدين، أو مع هذا الرجل الأشقر الباسم، وكأنه ذاهب الى لقاء سعيد، ليس كلقائهما مع زوجها، أو تتأرجح في تلك الأرجوحة التي كان الأطفال يتأرجحون فيها في حديقة صغيرة.

وفي هذا الوقت كف يحيى سليم عن سماع نشرة الأخبار. لاشيء جديد في هذا العالم. قال لنفسه: عبثاً أن استجدي جديداً من سماعي لنشرات الأخبار. فمن يدري ربما الجديد الحقيقي لايزد في نشرات الأخبار. من غير الممكن أن يعقم العالم هذا العقم القاتل الجديد يولد كل يوم، في مجرى الحياة الصاخبة القلقة المتحركة، بينما أنا أعيش حياتي بين جدران، أربعة، وأقوم بعمل ممل مرهق، وأمني نفسي بأن يهل عليّ شيء جديد، غصن زيتون يأتي به طائر يدخل من هذه النافذة العريضة، ويقول لي: تفضل، هاك الشيء الذي تفتقده في حياتك. مستحيل، أنا أو من بالخرافات، من حيث لأدري. العالم موار خارج هذه الحجرة الزنزانة، خارج الأماكن التي ارتادها، الشوارع التي أطرقها، خارج هذا الروتين المهلك الذي يسمم حياتي. ربما أنا مشوه، من حيث لأدري، ربما أنا مجنون بحب الوهم، افتقد شيئاً، ولكن لأبحث عنه، بل انتظر أن يبحث هو عني ويأتي إليّ. هذا محال هذا ضياع. ومرة أخرى تذكر الحلم الذي رآه في الليلة البارحة. وأشعل علوان شاكر سبكاراً بعد الفطور، وأحس احساساً فاجعاً بأن زوجته هبطت عليه كالعريد وأن عنصرأ مغلقاً دخل حكياته الآن، في لحظة هو أحوج مايكون فيها لينذر نفسه للعلم مع بعض المرطبات الضرورية لهضم هذا العلم. ملأ صدره بالدخان، وتخرج صدره، وسعل، وقال: ستقتلني رسمية، وتبيد طاقاتي. أنا مغبون والله. لأحد يكثرث بي، ولايفهم الرسالة الموكلة الي. يؤلمني أنني مغبون بفضاعة، وغريب حتى من زوجتي. لانفهم أن مالا يحق للخامل البلبد يحق للموهوب المبشر بالعطاء... وأفرد أصابع اليمنى بتشنج وعصبية، ووقعت السيكارا في حجرة.

وفي « البوفيه » في الطابق التاسع من الفندق المطل على النهر كان ثابت حسين مايزال يقرأ ما كتبه يحيى سليم، وميز رأسه، ويقول لنفسه: أقدار! لأن يحيى سليم يكتب: « أليس من سخرية الأقدار أن أترك كل نساء العالم، وأتعلق بامرأة لها طفل؟ كأن الماضي يعاد، يعاد أمامي بصورة هزلية، نكاية بي وسخرية من فروسيستي المهزومة. هذه امرأة أخرى تريد أن تحتسي بفروسيستي المهزومة. سأفشل حتماً. ألم أفشل مع نادية، معك، مع حياتي الماضية؟ حياتي سلسلة من الفشل. ومع ذلك فإن خوض التجربة كان يجذبني اليها؟ أتعرف. انها تتحدث كما

تتحدث نادية تماماً . ذات مرة في المطعم ( صرنا نلتقي على مائدة واحدة في الغالب ) سألت :

— ألا تشترك في الرحلات التي تنظم الى الأماكن الجميلة ؟

قلت بنفور وضيق من وحدتي النفسية :

— لا .

قالت :

— هذه فرصة سانحة ليرى الانسان أشياء كثيرة .

قلت مستغرباً :

— مثل أي شيء ؟

— البحيرة الجبلية، الكهف الطويل، الدير القديم، حديقة النباتات . الرحلات أيضاً

احدى وسائل الراحة .

— وتذهين بها ؟

— اذهب، رغم أن الطفل يقيدني . متعتي المفضلة أن أشهد أماكن جديدة، اكتشف

أشياء جديدة، أرى أماكن ونباتات وأشكالاً جديدة من العمارة . وأتنفس الهواء بكل شذاه الطبيعي .

قلت لها :

— أحسدك .

— ولماذا تحسدني، والرحلات ميسرة لكل الناس .

— أحسدك على حب التنقل .

قالت ضاحكة :

— كل من له رجلاان سليمتان، وبعض النقود تتسير له هذه المتعة . المهم الرغبة . أليست

لك الرغبة في رؤية الأشياء الجديدة ؟

قلت بين المزاح المرير والرغبة المحمّدة :

— عندي، ولكن أن تأتي هذه الأشياء الجديدة الي، لا أن أذهب اليها .

ضحكت ضحكة زنانة . وضحك الطفل بالتبعية .

وكان النهار قد أوشك على الانصاف، وسمع صالح جميل زنين التلفون، وهو بين الصحو

والمنام . مط شفتيه المتلذجين من الداخل، وتكاسل أن ينهض للرد على التلفون، ولكن الرنين

الملحاح كان يزعبه، ولا يدعه يتابع نومه . ونهض وسار مترنحاً من بقايا النوم، وخمار البارحة،

والتقط السماعة .

— هالو !

كانت أخته في الطرف الثاني من الخط :

— عيني، صالح، كيف العمل مع الأغراض؟

— أي أغراض؟

— بعث الناس معي أغراضاً الى أولادهم هنا. خلطت فيها بشكل لايرحم. سلمت  
الخداء لمن أرسلوا له بنظولنا، والبنظولون لمن أرسلوا له خدءاء. ماالعمل؟

تضايق صالح، وقال:

— من أجل هذه المسألة التافهة أيقظتني من النوم؟

— ولماذا تعتبرها مسألة تافهة... هذه أمانة...

قال في ضيق:

— أنا لأفهم بالاحذية والبناطيل.

— بماذا تفهم إذن؟

قال لزج القم ليضايقها:

— أفهم بالشمبانيا... الباردة.

قالت عبر المدينة:

— الشمبازي... شربت منه جرعة البارحة، وطول الليل رأسي لم يتركني أنام...

الله يساعذك، أنت.

— ويساعذك في الأحذية أيضاً... وقت الغذاء أمر عليك.

وبدأ يحكي سليم يضييق من رصف الكلمات، وصياغة العبارات، وصارت للقواميس  
روائح القيور. وكانت الشمس قد أخذت تغارله، وتلم كفه الأيسر بلسانها الدافء الأصفر،  
حين أطلت عليه من النافذة العريضة الخالية من الستارة. ورفع رأسه فرأى القسم الأعلى من  
الأشجار مثل مظلات خضر تكلكل على الشارع، حيث الناس، والهواء الطلق، والحياة. ألقى  
القلم على الورق، ونهض وتمطى، وفرقت عظامه. وقال لنفسه لايد أن أخرج... ولكن الى  
أين؟

بينما كان صالح جميل جالساً في المقهى بتكاسل، متردداً هل يشرب كأسه الثانية أم  
يذهب الى أخته الآن. وضع أصابع يده اليمنى على باطن كفه اليسرى، وراح على عادته يتأمل  
هذه الأصابع القصيرة المتورمة، ويفكر: هل كانت كذلك من قبل أم راحت تقصر مع الزمن؟  
من قلة الاستعمال المجدي؟ بدت له، وكأنها تتخلى عنه هذه الأصابع. كانت من قبل أكثر  
طواعية أتتقلص وتلين، ولكنها تبدو الآن، وكأنها بلا سلاميات. حاول أن يطويها، ويعكف  
السلاميات. ولكن أحس بالألم وبالتشنج وقال لنفسه: «عجيبة! ستقطع علاقتي مع أصابعي  
في يوم ما. انها صائرة الى التيبس. ورفع كأسه الفارغة فارتجفت في يده. وقال لنفسه: لأنها  
فارغة!» وطلب كأساً أخرى. وبعدها سيذهب الى أخته. وعندما شرب الجرعة الأولى أحس  
بصحو عقلي. وقال في نشوة: عقلي، عقلي الوحيد الذي يطوعني.

جاء في اليوم التالي، فرأى جمعاً من الأطباء متحلقين حوله . وقف عند الباب متريناً،  
واضعاً أكياس الفاكهة فوق سطح نلاجة قرب الباب . لاشك في أنهم يتدارسون وضع  
جمجمته . فكر الرجل مع نفسه : الجمجمة المفلوعة، قال في انتحاب صدري عميق .  
لم يكن البروفسور كوزين بين الأطباء، فتركهم يمرون من أمامه ولما غيهم الباب، رفع  
الأكياس، وأقبل على ابنه :

— كيف حالك، يا حسان ؟

— نزين .

— جاعوا يفحصونك ؟

— وخزوني بالأبر في وجهي في يدي . ولفوا شريطاً أسود حول ذراعي، ونفخوا، مثلما  
يفعلون كل يوم . ولكن اليوم على اليدين الاثنتين .

— انهم يطمئنون على صحتك .

— أعرف .

واتكأ على اليد السليمة، ورفع جسده أعلى من الخدة، بقدرة أقوى على التحكم، في  
جسده، وشرأب بعنقه، وعابن عبر المطر الى خضرة الأشجار المخضلة .

— مطر ؟

— نعم، يا ولدي، مطر يمشط بنات الجلبى، ويجعل الخضرة أكثر يناعة . وبعد قليل  
ستنشع السحب، وتبتدد، وتبرز الشمس، وتحفف الشوارع، وتعيد الى الأشياء ألوانها  
الأصلية .

ظل حسان يعانق بصره الدنيا خارج النافذة، وكأنما يترقب شيئاً سيمرق من ورائها .  
قال كالحالم :

— التمشي لطيف ... هيه .

— بعد المطر نعم ... انتظر قليلاً، وستمشى سوية .

— مثلما في الفيلم ؟

— وأحسن ...

لم يقل شيئاً، بل عاد الى وضعه الأول، منزوياً عن الطبيعة خلف زجاج النوافذ، وسهم واكتسى وجهه جموداً كالاستغراق. وبعد لحظة صمت فارغة وقال:

— لماذا يسميه عمي؟

— من؟ في الفيلم؟ هكذا شاءت الظروف، يا ولدي.

وهل تحسب ذلك هيناً على الولد؟ حتى ولو كان تمثيلاً في التمثيل.

— ولكن... ظل يتمشى معه.

ظل، كل يوم... الى أن انتهى الفيلم.

— لوحدهما؟

— لوحدهما.

قال باستغراب:

— ولم يقل له: أنا أبوك الأصلي؟

سكت الرجل، وأحرج، ولم يعرف بماذا يرد عليه. بل لعن نفسه على تلك اللحظة الفالسة التي جعلته يقص عليه حكاية بعيدة عن مداركه. ثم قال الصبي مافي ذهنه بقوة اقتناع تام:

— يسكه من يده، ويقول: اسمع، يافريد، ترى أنا أبوك... وهل تتصور أن الولد

لايفرح؟ الولد من غير أب...

ولم يكمل الجملة، ولكن سهومه، ومجاهدته التي بدت بتوتر تقاطيعه المنحوتة، وعينيه، في تحديقتهما بشكل خاص، من خلال أبيه، الى عالم غير مرئي إلا له، كل ذلك كان يوميء الى مايطوف في ذهن الصبي. قال الرجل محاولاً أن يجذب الصبي الى منطقته.

— نعم، يا احسان، كان من الممكن أن يقول له ذلك رأساً، ولكن لم يرد أن يصدمه.

كان يريد أن يكسب مودته أولاً، أن يحرك نداء الدم في شرايينه. أنا لم أقص لك القصة الى الآخر، مثلما لاتعرف تلك اللحظات التي تترسخ في الذهن، لدى مشاهدة الفيلم فلا تحكم منذ الآن. أنا أعرفها جيداً، منذ البداية، مثلما أعرفك أنت. كيف جئت الى الدنيا. وكيف ركبت في سيارة صديق لأخذك مع أمك من مستشفى الفردوس. عندما لم تكن هناك مراسم. انتظرنا أمك في غرفة الانتظار حتى أهلت علينا، وجهها مشرق بابتسامة الرضا بما هو مقسوم، وهي تحملك لفة بشكل كبة حلب، ولكن على أكبر. ولم تكن هناك مراسم معقدة، كما قلت لك، بل لم نحمل لأمك زهوراً. بل رزقنا «الداية» بدينار للحلاوة، وأخذناك ومشيئنا. كان كل شيء سيكون رائعاً لولا ظروف قاهرة فظلة جعلتني وأمك في الشهر الثالث من الولادة... ولكنك كنت لي كالنجم الهادي تبدد لي ظلام عربات الحمولة لذلك القطار المنحدر خلسة كالافعى



الى صحراء الجنوب . ولأنك ولدت لتعيش ، ولتعيش حياة لا يتم فيها ولاضياع . كان عليّ أن أقاوم وأعيش... هكذا كنت أقول لنفسي ، وأنا ممدد في عربة بضائع مغلقة خانقة الأنفاس ، حيث كان الهواء أثنى من الطعام والماء ، وحيث كانوا يجرون الشيوخ الى خصائص العربات ليستنشقوا هواء الحياة فلا يموتوا . كنا مكدمين في العربة كالأكياس . وكان من المفروض أن ينقلونا الى السماوة . والمسافة بينها وبين بغداد تستغرق عشر ساعات تكفي لأن نخنق أكثرنا قوة وشباباً ، ليصلوا الى السماوة جنثاً هامدة . الى هذا الحد ، يا حسان ، يبلغ الحقد أحياناً . ولكن سائق القطار قرر بسليقته الخاصة أن يضاعف سرعة القطار ، وأن يقطع المسافة بخمس ساعات . هناك ، يا ولدي ، أناس يصورون أنفسهم سائقي قطار الأمة والوطن ، ولكنهم يسوقون قطارها الى الجحيم ، والدمار . أما هذا الرجل البسيط ، صاحب عشرين سنة خدمة في سياقة القطارات ، فقد أبقى شرف مهنته ، كما أبت كرامته أن يحمل في قطاره أحياء ، ليصل بهم موتى ، فقرر مضاعفة السرعة . ويقال كانت المحطات مندهشة لوصول القطار قبل الموعد المحدد له . ولم يعبأ القطار بذلك . وسار مقداماً حتى وصل الى السماوة ، فقفز من قاطرته ، وصرخ بالناس : ياناس ، يا عالم ، عندي ألف وخمسمائة رجل سيموتون من العطش بعد ساعة ، إذا لم تهرعوا اليهم بالماء والغذاء . وهرع الناس الطيبون اليهم ، كل بما في بيته ، ونجا الركاب من الموت المخطط لهم ، وإن لم ينجوا من التعذيب . ذلك تاريخ بشع لأريد أن أسوقه اليك وعندما ستكبر ستعرف ، وتأخذ العبرة . لقد ولدت في سنة من أبشع السنين .  
وتنفس الرجل نفساً عميقاً ، وقال :  
— والآن ، لنعد الى الفيلم .

— بابا، أنا اليوم سأحكى لك حكاية... خذ الكرسي من هناك واجلس.  
تناول ثابت الكرسي قرب السرير المقابل، وجلس الى جانب سرير ابنه وتنبأ للسماع،  
وهو ينظر في عيني الصبي المتألمتين رضى وقناعة.

— قل، يا ولدي.

— احكي لك عن الحيوانات، لاعن الناس.

— لأبأس. الناس يجعلون الحيوانات تفعل ما يريدون هم أن يفعلوه، ويكلمونها بما يريدون  
هم أن يقولوه.

— زين. كان الثعلب جائعاً فخرج لاصطياد السمك. أحرز كيف يصطاد؟ بذيله.  
يجلس الى جانب النهر، وحين يلمح سمكة تنط، يلف عليها ذيله الحرك، ويصطادها... نعم،  
نعم، بهذا الشكل يصطاد السمك. يعني لاتصدق؟  
— أصدق.

— وجلس الثعلب على الشاطئ ينتظر أن تنط سمكة ساهية مسكينة فيلقفها بذيله.  
ولكنه انتظر طويلاً، ولم تطلع سمكة واحدة ومعدته تفرقر من الجوع. ويئس، وترك مكانه  
وقال: سأجد لي طعامي بحيلة من حيل الكثرة وسار في الطريق، وسار، وفجأة لمح عربة فيها  
سمك كثير. والصيداء عائد الى بيته يغني فرحان بصيده. فقال الثعلب لنفسه: ايه، وجدت  
مايسد جوعي ويكفي لأيام كثيرة قادمة. والتف على العربة من درب آخر، حتى سبقها، وارتمى  
في الطريق الذي تسير فيه، وجعل نفسه ميتاً. ولما وصل الصيداء الى مكانه، نظر اليه، وهو  
مطروح، فقال لنفسه حظي اليوم سعيد. هذا الثعلب ميت سأخذه الى بيتي لتصنع زوجتي  
العجوز من فروته شيئاً يدفئها. ونزل من العربة، وحمل الثعلب على يديه، والقاه وراءه في العربة  
قرب تل السمك. وسار الصيداء يغني بفرح أكبر. ولما وصل الى بيته رأى امرأته العجوز تنتظره  
أمام الكوخ، ونزل من العربة وهو يهز يديه في الهواء وجاء اليها، وقال: اليوم وفقني الله،  
فاصطدت سمكاً كثيراً، وفي الطريق وجدت ثعلباً ميتاً فأخذته معي لتصنعي منه مايدفئك في  
الشتاء. فاذهبي وانزلي كل مائي العربة. ودخل الكوخ ليغتسل، و ينتظر أن يسمع كلاماً حلواً  
من زوجته.

ولكنها دخلت عليه الكوخ مهمومة ، وقالت له : أنت تضحك علي . لاسمك ولائعلب .  
والعربة فارغة . وخرج الصياد ليتأكد بنفسه ، فوجد العربة فارغة بالفعل . وقال : آخ ، يائعلب ،  
يايحتمال ، خدعتني ! وكان الثعلب المكار ، لما تأكد من أن الصياد مشغول عنه بالغناء والفرح ،  
أخذ يلقي السمك على العشب في الطريق ، حتى لايطلع صوت . ولما انتهى من رمي السمك ،  
انسل هو بقفزة خفيفة . هذه هي الحكاية ... حلوة ؟

— من جاري ... صرت أفهم لغتهم ... وعندني حكاية أخرى .  
— احكها ، ياولدي .

وختم حسان حكايته الثانية بسؤاله الطفولي :

— ها ؟ حلوة ؟

— حلوة ...

— الثعلب مكار ، بينا الأرنب هم أن يتباهى ، ولكنه صغير العقل ينخدع بسرعة .

— وهذا قال الشاعر: أرناب غير أنهم ملوك ، مفتحة عيونهم نيام . نعم ، ياولدي .  
كذلك هم الناس . بعضهم ثعالب ، وبعضهم أرناب ، ومن بينهم مخلوقات من المملكة الحيوانية  
من شتى الأنواع . منهم الذكي ، ومنهم الأبله ، منهم الطيب ومنهم الخبيث ، ومنهم المتواضع ومنهم  
المتباهي كالطاوروس ... وأنت تعرف الطاوروس بالطبع كيف ينفش ذيله . فرجتك عليه في  
المطيفية . كان يتهادى تحت شجرة توت في أول البستان ، أختبأنا أنا وأنت ، وراء الدكة ، وراقبناه  
يختال ماشياً ، مثل ديك هرم . وفجأة وقف ، ونشر ذيله ، فبدا كالمروحة المصنوعة من أقواس  
قرح . أنت تذكر . من هذا الريش كان يصنع جبار قفينة مراوح للسيدات والبنات الصغار ...  
في زماننا ، كنا نضع هذا الريش في المصاحف ، أيام كنا ندرس عند الملا . وهو شيخ ذو لحية  
بيضاء يسمى « داوي » فكنا نضيف له صفة على نفس وزن الاسم ، فنقول : داوي أبو ... مع  
اننا لم نر ذلك الذي نسميه . كان هذا الرجل يخبثنا ، أيام الخميس ، يخبث في أعلى سيقاننا ،  
حتى لانسبح في النهر ، ويكشف عليه يوم السبت . ولكن كنا نتحايل ونشد سيقاننا بورق  
لايتسرب منه الماء ، ونسبح في النهر . إلا أنه كان يحك سيقاننا بأظافره ، فإن طلع خط أبيض  
كشفت سرنا ، ولانفجع بعد ذلك الايمان الغليظة ، ولعبت « الفلقة » على أقدامنا العارية . ومع  
ذلك ، فقد كانت « الفلقة » أهون علينا من أن نقطع عن لعب الطفولة ذاك . فماذا كانت  
طفولتنا ، ياولدي ، غير تلك المسرات الصغيرة التي نسرقتها سراً ، وحلاوتها نابعة من هذا . ولم  
تكن هناك دور حضانة ، ولارياض أطفال ، وحتى المدارس كانت قليلة ، وبعضها مدارس أهلية ،  
والموسرون وحدهم ومتوسطو الحال يعيشون أولادهم الى مدرسة أهلية ، حين يتعذر عليهم ارسالهم  
الى مدرسة حكومية . وكان أبوك ، هذا المائل أمامك وقد درس سنتين في مدرسة أهلية ، لأن  
جدك ظن أنه سيفخر بذلك أمام الناس ولكنه كثيراً ماكان يعجز عن تسديد الأقساط في

أوقاتها . وكانت تلك مشكلة منغصة في الطفولة ، لأن التلميذ الذي لا يدفع الأجور في مواعيدها كان موضع احتقار من المعلمين والتلاميذ على حد سواء ، فكان أبوك ، حين يتعذر على أبيه ، تسديد القسط يفضل الهروب من المدرسة على أن ينادي على اسمه في الصف ، وينذر ، وتتوجه إليه الأنظار . فكان يهرب من المدرسة ، ويتسكع عند محطة القطار في آخر الصالحية ، ولا يعود إلا مع موعد الغذاء متعباً جائعاً حزيناً مترباً ، وكأنه قادم من مدينة أخرى غير بغداد . ويقسم على أن لا يذهب الى المدرسة حتى يسدد القسط ، فتصر أمه على الذهاب ، فيهرب ثانية . ومن ذلك الوقت استساغ أبوك عادة الهروب تخلصاً من المشاكل ، ومن المواقف الحرجة ، ومن التقصير . فكان يلجأ إليها في صباه وشبابه حتى علمته التجربة أن الهروب أو التهرب عادة قبيحة لاتحل مشكلة ، ولاتنقذ من مأزق . بل بالعكس تزيد المشاكل تعقيداً . وحين كنت أعود الى المدرسة ، ويجب أن أعود أجد الدروس قد فاتتني كثيراً ، وأجد نفسي في ضيق وغم أكثر من السابق . ولهذا ، يا ولدي ، يجب أن نواجه الحقائق ، ولانهرب منها . والعمل الذي لا بد أن تؤديه اليوم يجب أن تؤديه اليوم ، ولا تؤجله الى الغد . تلك حكمة الأولين ، ويجب أن نلتزم بها . فمثلاً ( وبلغ ثابت حسين ريقه ، ونظر الى ابنه ، فرآه مصغياً اليه ، فوجد الجرأة لأن يتابع ) فمثلاً ، يا ولدي ، أمامك عملية يجب أن تجرى لك ، ولمصلحتك ، فلماذا لاتجرىها في الوقت المناسب ؟

بخلق الصبي فيه مبهوتاً ، وسأل :

— عملية ؟ ... أي عملية ؟ ... على يدي ؟

— لا يا ولدي ، وعلى رأسك .

قال الصبي كالمدعور :

— مرة أخرى على رأسي ؟ أنا ...

وتقلص وجهه ضيقاً ، وانعقد الحاجبان الكثيفان في معاناة ، وانطبقت الشفتان على كلمة

لا بد أن تكون موجعة . تابع ثابت يقول :

— على رأسك ، يا ولدي . لأن رأسك يتحكم في يدك ، وهو الأساس . وذا كان سليماً

سلمت جميع الأعضاء ، وتوفرت لك العافية الجسدية والعقلية ... ثم انها عملية بسيطة لاخطر فيها . كل الأشياء الخطرة ولت ، ولن تعود ... كما أنك تشكو من وجع الرأس ، وبعد هذه العملية سيزول الوجع .

قال الصبي مديراً وجهه عن أبيه قليلاً :

— وجع الرأس خف ، يوجع قليلاً ويزول .

— لأنك في مستشفى ، وفي ردهة مدفأة ، وتحت رعاية كبيرة . ولكن أمامك حياة طويلة

حياة يحال تعمل فيها وتفكر وتؤدي ما يؤديه الناس الآخرون . وهذه العملية تحصنك من وجع الرأس ، وتحميك من كل طارئ . لاتخف ، يا احسان ، لاتخف ... أنا معك .

قال حسان بزعل :

— ولكن العملية ستجرى على رأسي أنا ...

— ليتها تجرى على رأسي هذا السميك القشرة، الآخذ بالصلع، ولكن هناك أشياء في الحياة يجب أن يتحملها الشخص المعني نفسه، ولا يمكن نقلها الى الآخرين، ويجب أن يكون الانسان شجاعاً ليتحمل نصيبه .

سهم الصبي ولم يقل شيئاً ... وبعد صمت محرج لم يعرف ثابت ماذا يقول لينبيه، قال حسان كالمحدث نفسه :

— قلبي أعلمني .... والأطباء يأتون كل يوم، يفحصونني .

— لمصلحتك، يا حسان، لمصلحتك، حتى تخرج من هنا برأس سليم ( لم يقل بجمجمة سليمة، لأن مجرد ذكر الجمجمة يثير هلمه ) وأعود معك الى بغداد. ألم تشتق الى أمك، الى البيت، الى الشطيطة الى المدرسة ولزملائك فيها ... أم تظل هارياً منها مثل أبيك التعيس؟  
رف على شففتي الصبي شبح ابتسامة باهتة. قال ثابت :

— وباري أيضاً ستجده في انتظارك، وستضحك، منه، لأن ذلك الفأر الصغير نبت له شارب .

الآن لم يعد ثابت حسين يقابل ابنه طريح الفراش، نصف مقعد ليقتص له أخبار الدنيا، ويعمر ذاكرته بماضي حياته. صار يلتقيه على مسطبة في حديقة المستشفى. وفي غمرة الطبيعة المزهوة، والخضرة اليانعة، والنسيم الشذي. تقهقرت حكاياته وأبطالها، وانزوت في الذاكرة أو نسيت تماماً. ولكن ثابت كان يشعر وكأنه فقد شيئاً كان يتلذذ بالنطق به، فقد لذة الرواية الذي ينسج لنفسه مصائر أبطاله، المستوحين من الواقع. وكالراوي كان يحس بالحنان نحوهم، بالشفقة على خيبتهم. الآن صار يعايشهم ولايروي حكاياتهم. وفي المعاشة مرارة، وفي الرواية احتضان ومسؤولية.

وجد حسناً يجلس على مسطبة في أول الحديقة يتابع صبياناً مثله كانوا يتدربون على الاسماك بكرة مطاطية ملونة. وكان يبدو مستغرقاً بكليته في هذه اللعبة. وقف ثابت يراقبه على خلفية بيضاء لشجرة خماسية الزهور تجسّد كل هيكله الأسمر النحيل. كان وجهه مستطيلاً متوتراً مستغرقاً في عملية حماس داخلية. وكان الحاجبان مقطبين في معاناة حادة. وقف الرجل يتأمل ابنه، وهو يتابع عملية استعادة القدرة لأناس مثله، وشبان فقدوا بهذا القدر أو ذاك التحكم بحركاتهم. كان يرفع الابن رجله السليمة، ويحاول أن ييث الحياة برجله الأخرى المعطوبة. وكانت اليد اليسرى الطليقة ترتفع عالياً في الهواء، وتخلق اليمنى نصف تخليق كجناح طائر كسير. كانت هذه العملية تبدو لثابت اختزالاً رائعاً لكل جهاده لاسترداد حيويته كاملة، والعودة الى الحياة الطبيعية. قال ثابت لنفسه: هراء كل ماقصصته عليه، أنا لم أساعده في بناء حياته، بل هو الذي بناها من الداخل بصبره ومجاهدته، هو الذي يصنع عالمه الداخلي، وهو يقطع العملية التي تستغرقه، حتى حانت من الصبي التفاتة، فهتف، بابا وطوق رقبته بذراعه السليمة حين انحنى ليقبله، وتشبث بالرقبة، ونهض من مكانه وقال لأبيه:

— تعال ...

سارا خطوات. قال الصبي:

— سأدلك على الأشجار والزهور التي تنبت في حديقتنا. وقاده عبر درب ضيق تحف به

أشجار صغيرة تبرز من بينها أشجار فرعاء بيضاء. قال الصبي:

— هذه شجرة كرز، وتلك ذات الفتائل تسمى جيروموخا. وهناك، تعال. هذه شجرة

تفاح ستفتح قريباً، وابعدها شجرة كستناء نادرة .

وظل يقود أباه من يده، ويشير الى بعض النباتات والزهور الصغيرة ويسمبها باسمائها، والرجل صامت لايعرف هذه الأسماء ترك ابنه يتكلم وكأنه دليل في متحف في الهواء الطلق . كان يتكلم بحماس خفيض الصوت، وكأنما يخشى أن يلفت الآخرين الى لفته الغريبة . ومن حين لآخر كان يهز رأسه بالتحية لمن يلتقيهم . كان يسير كالمعتاد، ولكن بثقة متجهماً الى نهاية الحديقة . والرجل حائر لايعرف ماذا يفعل . أيوقفه خوفاً عليه من التعب، أم يتقاد معه باندفاعه، الشبيه باندفاع هارب حتى لاح الحائط في أقصى الحديقة، وقال الصبي لأبيه :

— تعال نجلس هناك .

وكان يشير الى مسطبة منفردة في ركن . وقال ثابت :

— ألا يبحثون عنك ؟

— كم الساعة، الآن ؟

— الثانية عشرة والنصف .

— بعد ساعة ونصف للغداء .

وجلسا على المسطبة، والمرضى بعيدون عنهم . انهد الصبي عليها مد رجله الى الأمام، ووضع ذراعه السليمة على ظهر المسطبة، والأخرى المعطوبة في حجره . نظر ثابت الى وجه ابنه . بدا له في نقاب خفيف من العرق، متهدل الفك، متوتر القسمات . ربما ذلك من أثر الجهد الذي بذله لقطع هذه المسافة الطويلة بهذه السرعة . بدا وكأن الحماس نضب منه . استرخى واستغرق في تفكير مركز في دنيا بعيدة عن منال رجل . وخشي ثابت أن يشغله، موفراً له أكبر قدر من الراحة واسترجاع القوى . وأخيراً قال الصبي :

— بابا ؟

— نعم، يا حبيبي .

صمت، ثم :

— ارهد أن أسافر .

— تسافر؟ إلى أين ؟

— ارهد أن ارجع لأمي .

بوغت الرجل، ونظر الى ابنه :

— والمعالجة ؟

— كفاني معالجة ... أنا سليم . ارهد أن ارجع لأمي .

— حسان، أملك دائماً في انتظارك، فلا تستعجل، ولكن يجب أن تعود اليها سليماً .

— قلت لك أنا سليم .

- والعملية ؟
- خلص قلبي من العمليات . أريد أن ارجع لأمي .
- أمك لاتضيع منك .
- همس حسان :
- ستنسائي .
- ستسناك ؟ أمك تنسناك ؟
- صارت لها ابنة ، وستنسائي . تلتبي بها .
- نظر الرجل اليه باستغراب ، وقال :
- معقول ؟ أي طفل يجعلها تنسناك ، وهي التي تعبت عليك ، وربتك ، وبكت كثيراً على فراقك ، وأرسلت لك الهدايا .
- قال حسان :
- كل شيء تنساه في الدنيا ، اذا لم تره مدة طويلة — وصمت متردداً — ذاك . ما اسمه ؟
- في الفيلم .
- ولكن هذا فيلم ، سينما ، تمثيل . ولا يحصل في الحياة . ثم من قال انه نسي ابنه .
- تركه يذهب .. ومع السلامة ...
- آه ، يا حسان ، أنت صغير ولا تفهم .
- أفهم ، أفهم .
- ثم انني لم أقص لك الفيلم الى الآخر ... في آخر الفيلم تصافي الأب والأبن . وبعد الطلعات والخشات صار الابن لا يريد أن يفترق عن ابيه .
- عن عمه ...
- لا عن ابيه ... قال له في آخر الفيلم : أنا أبوك .
- سكت حسان متوتر القسمات . وشعر الرجل بأن ابنه سيقول له بعد لحظة : أنت تكذب علي ... رأى ذلك من السحابة التي غشيت وجهه ومن تهبُّ الشفتين للنطق بكلمة شك . وأخيراً قال حسان :
- لا أعرف أريد أن ارجع الى أمي .
- اللعنة على أمك — قال الرجل غاضباً مشحون النفس بالشجن — ألا يكفيك أن أكون الى جانبك ؟ أعيش من أجلك ؟ أيامي كلها تختزل الى هذه الساعات التي أقضيها معك ؟ عيب ، يا حسان ، عيب . أنت لم تعد طفلاً . والحننة جعلتك تكتسب تجربة ، وتتعلم الصبر . الآلام نفسها تعلم الصبر . وأنا أعرف أنك تعذبت بما فيه الكفاية ، واستغرب من أنك لم تتعلم الصبر بعد .



- مضى الصبي يقول باصرار :
- أريد أن ارجع لأمي .
- التفت ثابت اليه بكليته، وعابن في وجهه :
- هل حلمت بحلم مزعج هذه الليلة .
- في الليل لأنام... حتى أحلم .
- خائف؟ خائف من شيء؟
- سكت حسان قليلاً، وقال :
- لأهد العملية... ماذا تنفع العملية. رأسي سليم ، ولأحس بشيء .
- ومستقبلك؟ مستقبلك؟
- قال الصبي بسخرية مريرة ليست لمثل سنه :
- مستقبلي؟ هيه... .
- لا تشك في مستقبلك، يا حسان، الشك دودة تنخر في جسم الانسان وتأكله من الداخل. كل شيء إلا أن تشك في مستقبلك كم تحدثنا وروينا الأقاويصص، ضربنا الأمثال! والآن تشك في مستقبلك!
- كنت تفعل حتى لا تنسيني أهلي... والآن مشتاق لهم .
- لا، يا عزيزي. كنت أريد أن أملأ نفسيك بالأيمان، بتحمل المصاعب، لتخرج سليماً قوي العود، عامر الذاكرة .
- ذاكرتي جيدة. هل تريد أن أقص عليك كيف وقع الحادث؟
- لا، لا، لأريد. اترك هذا من ذهنك. راح وانقضى. أهذا الذي يروعك؟
- لا، أريد أن أعود الى البيت. ضقت من رائحة المستشفى، والطعام الثقيل، والشخير، والموتى ينقلوهم في الليل. لأريد أن أبقى .
- سكت الرجل معذباً. ثم بدأ بداية جديدة :
- طيب، وصيف العراق الجهنمي الآن؟ كيف ستتحمله ب... ب... (وكاد يقول برأسك المفلوع)... بصحتك الضعيفة الآن. المعافون يهارون عصيباً في حر الصيف في العراق، فكيف بذوي الأعصاب الرقيقة؟ ستقضي الصيف هنا، وفي الخريف نعود. أنت تعرف خريف بغداد الوديع...
- الى ذلك الوقت؟! أوه...
- الوقت يمر سريعاً، يا حسان أسرع من أسرع نهر في العالم. والسعيد من يعرف كيف ينعش روحه بقطراته المنسابة. بعكس الذي يشعر بثقل الوقت وطوله، فإنه يفقد القدرة على الحركة، ويصاب بأفة الملل، وتضيق به الدنيا يجف لديه الشوق الى رؤية ماحوله... تأمل،

ياحيبي ، هذه الدنيا فيما حولك — ونشر ثابت ذراعه فيما حوله — هذه الأشجار والزهور التي سميتها كيف تتغير وتتبدل كل يوم ، تأمل هؤلاء الناس فإن لكل واحد منهم قصة ، وسترى أن الوقت يمر سريعاً . وبعد انقضاء الصيف سأعود بك الى أهلك ، ولى مدرستك ، حيث ستستقبلك بالزهور .

— بالزهور؟

وأدار حسان وجهه في ضيق .

— ماذا تريد ، إذن؟

سكت لحظة ، ثم قال همساً :

— اريد أن ارجع كما كنت ...

في المساء، والغرفة الضيقة بنافذتها الثلاثية تبدو كحجرة معلقة في الهواء بلون الشفق حوافها اليسرى، كان ثابت حسين جالساً على مقعده الأحمر العالي الظهر، يتأرجح عليه بحركة رتيبة عابثة خالية من المتعة، تبدو وكأنها تهدئة الأعصاب لاغير. وأعصابه لم تكن هادئة. كانت حالة ابنه، وتلك الانتفاضة اللاإرادية تزعرعان الأشياء أمام بصره. حاول جاهداً، في خلوته المضنية هذه، أن ينفذ الى عقل الصبي، ويعرف ماالذي يقلقه بالضبط: أن يجيء لأمه طفل سليم تنسى معه ابنها الآخر المعطوب؟ أم لهفة الخروج من حالة الاضطراب هذه، أم الخوف من ذلك العالم الذي سيعود اليه، في كل الأحوال، معافى أو معلولاً. فالانسان، ولاسيما الصبي في عمره، لايمكن أن يألف المستشفى، والحالة الطارئة. يريد أن يعود، ولكن بأية حالة يعود؟ ربما هذا السؤال هو الذي يقلقه... نعم، هذا وتذكر ثابت حسين كيف انتفض ابنه، حين قال ستستقبلك مدرستك بالزهور. قال: لا، أريد أن ارجع كما كنت... أوه، ليته يضمن له ذلك، ولو من باب قصصه الخيالية التي ظن أنها تنسيه واقعه، وتعيده الى حياته الأولى. ولكن الرجل بعد أن صمت، وفكر طويلاً، عاد يقول لنفسه: لماذا تظن ذلك؟ ألم تحرك فيه الشوق الى الأشياء؟ ألم تربطه... نعم... ربطته. وفكر بفرح منغص كيف ذكر ابن يحيى سليم في موقف الدفاع عن الفكرة التي تلح على ذهنه... فكرة خاطفة، بالتأكيد، ومن خيال الطفل، ولكن فيها نوعاً من المشاركة الوجدانية، ومن المنطق، ومن الخوف من مطبات الحياة، ومن العودة الى العالم خارج المستشفى... ومن... ومن وزفر ثابت حسين فرحاً بمسار أفكاره.

اكتست الأشياء في الخارج زرقة رمادية بسبب سماء مغبشة، وأضيقت الأنوار دون أن تضيء إلا لنفسها، وبدت الكنيسة في الأسفل نموذجاً مصغراً للعمارة في متحف. وشعر ثابت حسين بوحشة تضغط على صدره. خطرت نفس الفكرة في باله، حسين كان يخلو البيت من أي انسان، وهي نفس الفكرة التي تجعله يخاف أن يوصد باب حجرته من الداخل، ولايسدل الستائر الخوف من أن يموت وحيداً، لايمكنشف أمره إلا من رائحة جنته المتعفنة. ربما هو في ذلك الخوف، مثل يحيى سليم الذي يجب أن يتام والستائر مزاحة ليشعر بالصلة بينه وبين العالم خارج حجرته، كما قال له ذات مرة.

وأراد ثابت حسين أن يربط نفسه بصديقه أو يتلهى بأفكاره الهوجاء عن أفكاره القائمة، فتناول أوراقه، فتحها، وقبل أن يستأنف قراءتها سأل نفسه: ماهذه؟ قصة أم اعترافات؟ أم زفرة كانت مخنوقة في الصدر لم يجد صاحبها بدأ من أن ينفثها، والا خنقته... فروسية! ولا فرق أن تكون مهزومة أو موهومة. وقرأ:

« صرت أنام الى ساعة متأخرة، بعد منتصف الليل. كنت أجلس على الشرفة، والبحر أمامي غامق اللون كحوت هائل. وكنت أراقب النوافذ المضاءة في البيت المجاور... بيتها. أراقبها تنطفئ واحدة بعد الأخرى، وأسأل نفسي: أية واحدة منها نافذتها؟ واحدة من تلك النوافذ المنطفئة بالتأكيد، لأن الطفل ينام مبكراً. وهي؟ ماذا تفعل الآن؟ جالسة وحدها في الشرفة مثلي؟ أم مستلقية على سريره مفتوحة العينين. وفيم تفكر؟ لأظنها تفكر في، ولأظنها! أو ربما... تفكر في فعلاً... كل شيء يحدث في هذه الدنيا الغريبة العجيبة. ألم تأت نادية بعد تلك السنوات من الفراق، لتنبش الماضي، وتنكأ الجرح، ثم تعود، وليس في القلب حسرة، عاتبت نفسي في ضيق: أوه، ماهذا الاحلاج على مسألة ميتة؟ امرأة وطلقتها وكفى ولم تطلق الناس وطلقوا وسيظلون الآن أمامك خالة جديدة، امرأة مات زوجها في حادثة سيارة، وهي متفتحة تريد أن تحمي بكف رجل... وأنت ذلك الرجل المتيء كلياً للامتلاك. وما الحب الا امتلاك، مثلما هي في كل شيء سواء أكان في عملك الذي تنهواه أو الفن، أو الجنس، أو الأشياء الجميلة الخيرة الأخرى. طبعاً، لا أقصد بالامتلاك ذلك المعنى التجاري المتبدل، البيع والشراء، تنازلاً عن شيء لقاء شيء آخر بل أقصد به الاضافة، أن تضيف لك وحياتك شيئاً باقياً مدفوعاً بقهر الذبول والانقراض في صمت. ولكنني، إذا نظرت الى الحب في هذا المعنى، أجد نفسي بعيداً عنه كل البعد. فإذا كان الحب امتلاكاً، فإن حياتي الماضية محاولات فاشلة لهذا النوع من الامتلاك، لأنني لم امتلك شيئاً، سوى ذكرياتي، بالطبع، وهي عملة محلية قاصرة على وحدي... » زهد ثابت في القراءة فاغفل صفحاتين لم يقرأهما وبعد ذلك طالعه هذه الكلمات:

... في الماضي (أوه، مرة أخرى، في الماضي — قال ثابت لنفسه — كنا ونادية نلعب لعبة شبيهة بهذه اللعبة، ولكن في طبيعة غير هذه الطبيعة. كنا نخرج، في أوج الشتاء، الى الغابات، حيث الثلج للركاب، وكنا نضع متاعنا من بيض وجبنة وحليب على احدى الأشجار الغارقة في الثلج، ونبتعد عنها، ونوغل متلذذين بدغدغة الثلج تحت أقدامنا، حتى اذا تعبنا، عدنا نفتش عن الشبكة التي وضعنا فيها الطعام، على احدى الأشجار، في تلك المتاهة المتشابكة يميناً ويساراً، أمامنا وخلفنا. ومن يعثر عليها أولاً كان يركع للآخر على ركبتيه في الثلج، وكنت أنا الراكع في معظم الأحيان. اركع، اركع، اركع ومازلت اركع. وفي هذه اللعبة أيضاً

كنت أنا الخاسر أيضاً . في البحر الشفاف كزجاج مذاب ، كنا نقف في الماء الى أعناقنا ، وننظر من خلال الماء الى الحصاة التي تلتفت نظرنا وتتسابق على التقاطها بعيون مغمضة . وكنت دائماً اخرج حصوة غير التي اتفقنا عليها . اخطيء الهدف ! بينما هي تسدد ، وتلتقط الحصوة المتفق عليها . وكنت أنا الخائب ، انظر الى وجهها المشرق المغسول بماء البحر ، وأسنانها البيض كالصدف ، ولعان العينين الرماديين ، وتورد الحديد ، ونعومة الرقبة الى غير ذلك ... وأقول : أعوذ بالله ، مصيبة ! ... »

ضحك ثابت حسين ، رغم كل ما في قلبه من حزن ، عرف النتيجة مسبقاً ، وأية مصيبة يقصد . ألقى الأوراق على المضدة ، وذرع الحجرة باسمأ ، متهلل الوجه ، فقد تذكر وقائع من سيرة يحيى سليم للتعلق بأذيال تنورة امرأة . كان له قانونه الخاص : لن أدخل مطعماً أو مقهى مع امرأة . لأنهن يأكلن ويشربن ... ومع السلامة . وذات مرة رفضت فتاة أن تدخل معه في مطعم ، قائلة : لماذا نمي عيوننا بدخان السكائر ، ونختنق باحتباس الهواء؟ تعال نتمشى في الحدائق . واعتبرها لقطعة . وقال في حينها وجدت كنزاً لامرأة وفي عشية الاحتفال برأس السنة قال فخوراً : ساحتفل وإياكم مع فتاتي . سآتي بها الى هنا ، واشتري زهوراً وزجاجة خمرة فاخرة . ووقف ينتظرها في محطة باص ، وانتظر ، وانتظر ، ولم تأت . وحين يمس من مجيئها قذف بباقة الزهور في سلة القمامة ، وفتح زجاجة النبيذ ، وراح يكرعها في الشارع على معدة حاوية . وطرق الباب علينا بعد الساعة العاشرة سكران ، منبوكاً ، محدد الوجه ، منهاراً . وقال كلمته المريرة : « لم تأت » ، وكأنما يقول : « لم أكسب المعركة » . وصب بقايا الزجاجاة في قدح كبير ، وجرعه دفعة واحدة . ولم تكن نعرف أنه مصاب بتقرح المعدة ، والا لامسكنا القدح من بين شفتيه . وبعد الساعة الحادية عشرة بدأت نفسه تمجيش ، فانزوى في المراض يفرغ ما في جوفه . وانقضى العام القديم ، وحل العام الجديد ، وهو هناك ، في المراض ، يصارع سكرات القيء المقيت .

هز ثابت حسين رأسه بمرارة ، ودار في الحجرة الضيقة مرتين أو ثلاثاً ، ثم جلس على السرير ، ووضع مرفقه على ركبته ، ووسد ذقنه كفه المعقوفة ، ودارت أفكار متلاحقة في ذهنه لم يستطع أن يمسك واحداً منها لسرعتها . كانت كالنيازك تظهر في ظلمة ذهنه ثم تغيب . استسلم اليها قانعاً ، مثلما يستسلم متخدر لروائح تأتيه عبر أنابيب في فتحتي أنفه . ومضى على ذلك وقت خارج الزمن ، غير محسوب ، أشبه بغيبوبة ، والعين مفتوحة . شلل كامل ، ثم أحس الرجل بأن الماضي في هذه الحالة معناه الانسراح الى النهاية ، فنفض رأسه واستيقظ . وعاد يدور في أرجاء الحجرة بمخيطى جندي متقاعد ، ولما تعب جلس على السرير ثانية ، وتناول أوراق يحيى سليم لا ارادياً ، مثلما يتناول المدخن سيكارة عند الضيق ، وقلب صفحاتها ، وقرأ : « هل تعرف أنني أتخيل ، أحياناً ، وسط صمت غرفتي المطبق أنني لطول انكبابي على الورق فقدت النطق ، وان لساني التصق في حلقي ( الآن يشاركه ثابت حسين هذا الشعور ) ولم تعد له وظيفة غير

توجيه الطعام تحت الأضراس . في تلك اللحظات تتناوبني حالات أشبه بالهلوسة أو الجنون . كنت أغلق باب الحمام علي ، وأصرخ بصوت عال : ياناس ، أنا حيّ . مازلت أعيش ، واستطيع أن أتكلم ( قال ثابت حسين في ذهنه : ربما سأفعل الآن مثله ! ) اشتم ، العن ، أنوح ، اضحك ، اضبع مطالبني في جهل مفيدة ، اجد لغة مشتركة مع البشر ، ا تبادل المشاعر ، فكيف أقضي نهاري وحيداً بين الورق والكتب والقواميس وكلها خرساء لتخاطب الا بالاشارات . والكلمة اذا لم تنطق تفقد مدلولها الانساني ، حرارتها . وفي الصمت يزدهر الخوف ... » .

أحس ثابت حسين لبهمة بوجع في اسفل البطن ، في منطقة الزائدة الدودية . فترك القراءة . الصمت يتكلم بلغة وحشية . هم أن يصرخ ليوقفه . قال سأتلفن لحيثي سليم . لن يكن يجيى سليم في البيت . ترك ثابت جرس التلفون يدق الى مالا نهاية ، مروحاً عن نفسه ، وعن يجيى سليم في الحمام ، ليثبت أنه ما يزال حياً يرزق . بأي شيء يرزق ؟ بالطعام والماء وماشابه ذلك ؟ نظر الى الساعة . مازالت لم تتجاوز التاسعة . والدنيا منورة رمادية مزرقه . والأشياء ساكنة سكون الأشباح . قال لنفسه : سأنزل الى البوفيه ، وأتناول عشاء خفيفاً ، وأتلفن ليحيى سليم مرة أخرى . ولكنه ، وهو يهم باغلاق الباب ، سمع رنين التلفون . ركض تاركاً المفتاح في ثقب الباب بلهفة لاتقل عن لهفة يجيى سليم حين يسمع صوتاً انسانياً . كان الصوت الانساني متحشراً في التلفون :

— أين أنت الآن ؟

— بعد أي كأس يوجه هذا السؤال ؟ أنت تتلفن اليّ في غرفتي ، وأنا ارفع السماعة ،

فأين أكون إذن ؟

— في الغرفة .

وضحك ضحكة نابعة من قلب مشبع بالكحول . وقال :

— نحن في انتظارك ، يا استاذ .

— لم نكن على موعد .

— يجيى بيننا ، وهو ونحن مشتاقون .

كانوا سبعة أو عشرة — غير مهم — وكانت المائدة مستطيلة مثقلة بالصحون والأطعمة

والزجاجات . رحبوا به . وجلس قرب صالح جميل . همس له :

— نحن نحتفل للمرة العاشرة .

سمع أحدهم همسه فقال :

— قل للمرة العشرين .

قال ثابت ضاحكاً :

وهل أنتم تحتاجون الى احتفال لتعمير الموائد ؟

- لاصحيح، نحن نحتفل .
- بأي شيء تحتفلون ؟
- بعودة صديقنا — وأشار الى شخص يتوسط المائدة — الى بغداد .
- الى بغداد ، الى بغداد .
- ترجم أحدهم بذلك ، وقال آخر :
- وفي كل مرة يجد عذراً لتأجيل السفر .
- قال مظهر الرسام مشيراً باصبعه قرب انفه الشبيه باصبع أخرى :
- والآن ، يا حازم ، هل قررت السفر نهائياً ؟
- قال حازم جازماً :
- نهائياً وقطعاً !
- قالت أصوات أخرى :
- في كل مرة يقول نهائياً وقطعاً ... هذه جملة المألوفة .
- قال المحتفى به :
- لا ، هذه المرة بالتأكيد .
- قال أحدهم :
- لنشرب نخب التأكيد هذا .
- لنشرب نخب اللقاء في أرض الوطن .
- اعترض أحدهم :
- لا . لنشرب في صحبة حازم ، الذي سيخبرنا بتجربته الجسور عما اذا كنا سنشرب نخب اللقاء في أرض الوطن أم لا .
- مهما يكن فالوطن عزيز .
- الوطن الذي لا يحترمك ...
- اسكت ، علوان ... جاءت زوجتك فاحتضنت العراق .
- قال علوان :
- منذ الآن ، وقيل أن أخذ الشهادة اشعر بالقلق ... إذا تخرجت هل سيحتضنني العراق ، أم افنش عن بلد أقل قسوة .
- صاح أحدهم :
- يا جماعة ، لماذا لاتسألون يحيى متى يعود . انه من المخضرمين .
- كلنا مخضرمون ، وكيلك الله .
- قال يحيى بغموض :

- ولماذا أعود، لأعد رؤوس النخيل المقطوعة؟  
 والتفتت الى ثابت، وتبادل معه النظرات. فقال ثابت بغمزة :  
 — في الصمت يزدهر الخوف .  
 وتصافحا عبر المائدة .  
 — يعني أنت تقرأ؟  
 — اقرأ، اقرأ، وأخاف من أفكارك .  
 — يعني عندي أفكار؟  
 — ولعينه ...  
 — ماوجه اللعنة فيها؟  
 — لاتوحي بالأمل ...  
 — رجعنا الى الأمل ... الأمل بأي شيء؟  
 — اسمع، يايجيى، اذا كانت نخلاتك العشرون قد قطعها يد ظالمة ... كما تقول في  
 قصبتك فإن في العراق ملايين النخيل، ماتزال تثمر .  
 — حتى تقطعها يد جلاذ آخر ...  
 وفي مكان آخر من المائدة كان النقاش على أشده .  
 — سأقطع يدي هذه اذا سافر حازم ...  
 — سترون أنني سأسافر ... قدمت على تأشيرة الخروج .  
 — ستسحبها ... أو تغير وجهة سفرك ... الى هناك .  
 وانفجروا ضاحكين .



كان يجيى سليم، طوال فترة العمل الصباحية، كالمعلق بحبل في وسطه، ويتأرجح في فراغ، ولا يستقر في وضع واحد. وكان الضيق يترسب في نفسه شيئاً فشيئاً كالرصاصة المذاب. بدا له الجلوس على طاولة الكتابة كالغوص في لجة كابوس ثقيل ينزل به أعمق فأعمق الى الاحتناق والتيبس... والموت، وربما، اذا لم يقاوم ويهب من على الكرسي اللعين، وينبت لنفسه أنه حي مايزال قادراً على الحركة، والمغامرة، والاكتشاف. أغلق قلم الحبر، وألقى به على جملة لم تتم بعد، ونهض، وقال لنفسه:

« هكذا يقرعنى ثابت حسين؟ وكأنني لأعرف أن العراق بلاد النخيل، وأن في البصرة وحدها عشرون مليون نخلة. أعرف هذا، وأعرف أشياء أخرى يحاول ثابت أن يتغاضى عنها. وهذا هو الفرق بيني وبينه... هو يغلبني فقط في اتخاذ القرار.. وعلى الآن أن اتخذ قراراً». وراح وجاء في الغرفة وقال لنفسه فجأة: انتهى! يجب أن أذهب إليها... لا بد أن أغامر. لن اترك المسألة في منتصف الطريق. فجأة أحس وكأنه مقدم على استرداد شيء عزيز عليه فقده في سن مبكرة، في تلك السن التي لايتبين فيها الانسان، بشكل واضح، مايفقده، إلا بعد أن يفلت من يده، ويفقده. كان النهار رمادياً خانقاً، ولكنه كان يبشر بسقوط مطر ينعش الجو، ويجعل الخضرة تخضل بتلك النداءة التي تبلل شفتين متيبستين بفعل احتقان داخلي. وتقدم من النافذة، ونظر الى دنيا الناس في الأسفل بذلك التوق المزمّن للآتيان بأي شيء، ولو بحماقة لاآتيات وجوده. تهباً للخروج. وكان في الصباح قد وضع في مسجله الصغير كاسيته، حسبما اتفق، واذا به يسمع أغنية فاضل عواد. وربطه ذلك بشيء قسري متوقع، له صلة بالماضي. ظلت الأغنية تتردد في طبله أذنه تلقائياً، عبر فوضى كلماتها، كلحن حزين من دنيا أخرى لصيقة به، وغريبة عنه، مملوءة بما هو مألوف، ماتجود به المصادفة، بالصدمة والفرحة المتيسرة، ومزق الذكريات. حاول في الطريق أن يترك ذهنه صافياً ويتقدم الى غايته بهدوء أعصاب، وباستسلام لقدريجب أن يقع، مثلما حدث له ذات مرة، كان يشعر وكأنه قد قام بهذا العمل من قبل أيضاً. سلك نفس الطريق، ولكن لغرض آخر. كانت ذكريات البحر تدفعه الى هذا اللقاء، وتترأى في خياله بقعة مشمسة في هذا الجو الرمادي الكالخ المنذر بعاصفة رعديّة، وفجأة ازدادت السماء ادلهاماً، وتحركت رؤوس الأشجار، ثم فروعها بعنف مهزوزة بريح مفاجئة، ودارت على الأرض

دوامات صغيرة من الأتربة والحصى الصغير. حث خطاه، دخل نفق المترو. وفي محطة فوق الجسر رأى النهر رصاصياً محبباً بأول الغيث. وقبل أن تغلق أبواب العربات بلحظة قفز يحيى سليم الى الخارج بوثة مستمتية. ذكرى قديمة انبثقت في قلبه كناض، وأخرجته الى الأرض الكونكريتية الكالحة. مد بصره في أعماق المحطة المستطيلة، هناك حيث الصفائح السماوية اللون المحزومة بأشرطة صفر، كانت نادية، في وقت ما، في أعماق التاريخ، تنتظره هناك، متكئة كطفلة صغيرة على سطح الجدار الصفائحي الصغير. وكان قد تأخر في تلك المرة عن الموعد قليلاً وحين اقترب منها رأى دموع الملل من الانتظار تلمع في عينيها الخضراوين... أبدى أسفه، وقدم لها عربون المصالحة والاعتذار كيساً من الفراولة القرمزية، وطوق خصرها بذراعه، وهبطا السلم، واستأجرا زورقاً، وتحولا على سطح النهر، نفس هذا النهر المنمش الآن بالآف من قطرات المطر. كانت جالسة قبالة عند قيوم الزورق، تأكل الفراولة، وتتشجج، وخداها يكتسيان لون تلك الفاكهة الهشة. كانت المحطة مقفرة الآن، والنهر يبدو مشرداً مهملاً من خلال ألواح الزجاج المتربة، وبلا زوارق. ملم التاريخ نفسه، وانقبر في دروب الذكرى. جاء قطار آخر. استعجل يحيى سليم، ومثلما قفز الى الذكرى بخفة، قفز عنها كمن أخطأ، ويخاف أن يراه الناس متورطاً في خطأ. وخفق قلبه للجهد الذي لايناسب سنه. وعندما جلس ثانية في عربة المترو. خيل اليه أنه ذاهب الى الموعد نفسه، وأنه قد أخطأ فعلاً في مكان الموعد. عبر النهر الى شوارع المدينة القديمة، حيث كان التجار يسكنون، ودخل ازقتها ذات البيوت الأجرية أو الخشبية المؤلفة من طابقين، حتى رأى البيت المدبب السقف بجدرانته من القرميد الأصفر والأخضر، وباب الصيدلية في ركنه المصبوغ بالأحمر القاني، العلامة التي قالت عنها أنها لا تخطأ. سار في الزقاق الى اليسار، وفي نهاية الزقاق رأى البيت الخشبي الى اليمين. هذا مكان عملها دخل الدهليز، حيث رأى خمسة أو ستة أشخاص يقفون معهم كتبهم للتجليد، يصطفون في طاوور عند شباك صغير. عبرهم، ورأى الباب مفتوحاً قليلاً، وقبل أن يدخله سمع صوتاً يسأله:

— أيها الشاب، إلى أين؟

تمتم بشيء غير مفهوم، وتجرأ أن يطل على القاعة الصغيرة بمناضها العديدة، ورائحة الأوراق والصبغ تتمدد منها، وفنث عنها يبصره بين نساء من مختلف الأعمار يأتزرن بمآزر زرقاء حتى لمحها في أقصى القاعة، عرف هالة شعرها، وبروفيل وجهها من بعيد. حاول أن يلفت انتباهها اليه بحركة مقصودة. اقترب خطوتين أخريين، تنحنح حتى التفتت، ورفعت بصرها اليه، وأشرق شيء في وجهها، ابتسامة أو ألق من مصباح حين استدارت نحوه. تركت ما بين يديها من كتب، واقلبت عليه، وهي تمسح يديها بأذيال مئزرها. كانت هذه أول مرة يراها خارج ساحل البحر، وفي لباس العمل، ومع الناس. كتلة متماسكة جدية. قالت:

— مرحباً، كم تبقى على الساعة الخامسة؟

- عشر دقائق .
- حالاً... هلا انتظرت في الشارع . فالجو هنا خائق... وبعد دقائق خرجت اليه فتاة أخرى فضرة موردة الخدين ، ملوحة البشرة ، لها علاقة حميمة بالبحر والجنوب . قالت :
- هل عسر عليك الاهتداء الى المكان ؟
- الصيدلية انقذتني .
- ضحكت وقالت :
- الصيدلية تنفذ دائماً... أو في معظم الحالات .
- سألها : كيف أنت ؟ قالت : مازلت أعيش على هواء الجنوب هل تعرف ؟ ربما قلت تلك من قبل... هذه هي المرة الثانية التي أذهب فيها الى البحر في حياتي كلها... مرة... أي نعم... والمرة الثانية قبل اسبوعين . أحياناً ، في الليل أتصور أنني أسمع هدير البحر ، وأنخيل أنني لو أفتح النافذة فسأرى البحر وأشم رائحته ، رائحة خضرة الجنوب المفخورة . ثم سألته ألا تحلم أنت بالبحر ؟
- قال كاذباً :
- أحلم به كحوت غاف .
- ضحكت وقالت :
- لأنك من بلاد السندباد البحري .
- أنعشته هذه الصفة ، وتمنى مائتي في سهو . ولكنه قال لها تورية :
- ولكن الرحلات تمنيني .
- لماذا ؟
- لأنني غالباً أو دائماً أعود خاوي الوفاض منها... وليس كالسندباد البحري... التفتت اليه بكل وجهها ، وقالت وهي تنظر في وجهه :
- ماذا تريد أن تغنم ؟ بمجوهرات ولآلئ ؟
- لا ، ليس هذا مأريده... .
- السفر هو المهم .
- قالت بثقة وتشديد على الكلمتين . نظر هو الآخر اليها ليتأكد من أنها هي المتكلمة ، وليس نادية . صممت وسارا في شوارع غير حافلة بالناس ، بعكس المدينة هناك ، وراء الضفة الأخرى من النهر . وكانت الفتاة طليقة الرجلين واللسان تتحدث بمتعة وحماس شديد يبدو كالمبالغ فيه ، وشعر يحيى سليم بالخوف من تحليقاتها ومن سيرها السريع ، وتماديا في الأحلام . كانت تتحدث وتتحدث حتى يلتفت الى وجهها ليتأكد أنها هي وليس الأخرى الراحلة الى ماوراء الجبال . كانت زنة صوتها ، ورفيف رائحتها الجسدية النقية ، المفخورة ، لما تنزل بشمس

الجنوب، تجعله يتصور أنه يحلم بشيء حصل له في السابق، وأنه وحيد وحدة قاتلة. ويتخيل ويتصور أن فتاة تسير الى جانبه... أو ربما هو يحلم بذكرى يسترجعها، ومثلما كان يفعل في سالف الأيام سألها:

— هلا جلسنا في مطعم أو مقهى؟

— هل أنت جائع؟

— ولا، ولكنني تعبت.

وكان صادقاً في قوله هذا. ضحكت ضحكتها الصادحة، صمتت صمت قبول ورضى وبعد دقائق صادقاً مطعماً عجيباً، شبيها بمركب راس على شاطئ النهر. عرض عليها الدخول اليه، وأمسكها من يدها، فأحس بما يشبه الرجفة والأرتداد. بل خيل اليه أنها حاولت أن تفلت من يده. وهذا أيضاً جعله يتصور أن ذلك حدث له في الماضي، حين كان يجرب حظه مع فتاة، ويجالسها في مطعم. واعتبر ذلك إمارة خير وتوفيق، حسب مقاييسه الماضية. قال متشجعاً، وهو يساعدها على صعود مرفاة المركب المتآكل، مغالباً شعوراً بالانهزام:

— انظري، ألا يذكرك هذا بشيء؟

— يذكركني بشيء؟

— قالتها بذعر خفي، وتهدج صوتها.

— ألا يذكرك بالبحر، ولونه الفيروزي؟

كان المطعم المركب مطلياً بلون أزرق مخضوضر. ضحكت ضحكة باردة. كان المطعم شبه خال. اختاراً مائدة تطل على النهر. مياه النهر رصاصية قائمة تبدو كالساكنة. وتذكر يحيى سليم صوت البحر الغافي، وتمنى لو يستيقظ، ويأخذه الى آمام بعيدة.

قال يحيى سليم يداعبها:

— ألا يخيل اليك، والماء قرينا، أننا فوق ظهر حوت، وأن الحوت سيستيقظ على حرارة

المطبخ في الأسفل، وينطلق بنا في عرض البحر؟

ضحكت ضحكة صدفية، وقالت:

— هذا لأنك سندباد بحري... أما أنا فلا أتخيل ذلك.

— طيب، ماذا تتخيلين؟

— ماذا أتخيل؟ — وسهمت وغامت عيناها للحظة، ثم انقشع الغيم، وقال: الأحسن

أن لاأتخيل شيئاً... دعنا جالسين بهدوء وبلا تخيل...

قال في يأس، وانكفاً على نفسه:

وقلب قائمة الطعام التي جاءت بها النادلة، وقال بلهجة القبول بالواقع:

— ماذا تأكلين؟

قالت بفتور :

— أي شيء تختاره .

واختار هو ماياًكلانه ويشربانه ، وأتكأت هي على ظهر الكرسي ، ومدت ذراعها الملوحه على الدرازين . نظرت اليها . الجفنان مسيلان والوجه مسحوب . وتصور أنها مغمومة لأن لها طفلاً ينتظرها في البيت . عند من تركته ؟ سأها . قالت باقتصاب :

— في دار الحضانة لليوم المطول .

وخشى أن يسأها : يعني ، أنت وحيدة في البيت ، خوفاً من سوء التأويل . كان هذا أول لقاء لهما بعد تعرفهما على ساحل البحر . في لحظة عين طاف البحر الأزرق في خياله ، وكرة مطاطية ملونة تتدحرج يلاحقها طفل عار . قال :

— لنشرب في صحة البحر .

اعترضت قبل أن تشرب في صحة البحر :

— البحر دائماً في صحة وعافية .

قال مداعباً :

— إذا كنا نحن أصحاب ، وإلا فسنلوئه ... ألم تسمعي بتلوث البحار ؟

— أها ، إذا كان بهذا المعنى .

تدلى رأسها قليلاً ، فأسندته بيدها المضمومة . تهدلت نخصلة من شعرها الكستنائي على جبينها الملوح ، واستغرقت في فترة صمت غامضة اختفت فيها عيناها تماماً تحت جفنيها المسبيلتين . وخيل ليحيى أن نوعاً من الخدر المبكر قد أسرها . وقال :

— اشربي جرعة أخرى ، وسيزول الخدر .

— ماذا ؟

هبت من سرحانها .

— أقول : اشربي جرعة أخرى وسيزول الخدر .

أطاعته هازة رأسها بغرابة ، وكأنما تطرد هذا الخدر الدايم وفي الجرعة الرابعة بدا عليها مرح نشوان ، وتوردت وجنتاه وتألقت عيناها وتجب جبينها الناصع بجبات دقيقة من اللؤلؤ المنثور ، وظلت تهمز رأسها هزات خفيفة ، وكأنها تهش تحلاً غير منظور .

أشفق عليها . قال لها : كلي الآن ، وسيزول عنك الدوار . ضحكت ضحكة غير طبيعية استغرب لها ، وفجأة بدت منفصلة عنه بالربع الخالي . وأسف لذلك وتشاءم ، وشعر بنوع من الحرج والامتعاض . وأطلق عليه سوداويته الزمينة . ألقى بصره عبر النهر ، وحاول أن يداري خيئته . الآن بدا له ، وكأنه مرتبط بها بقصة خائبة جديدة . صمت كلاهما . وهي التي حطمت الصمت حين قالت :

— آسفة، لم أعود على الشرب .

ولكن يدها امتدت الى القدح لإرادياً، وهمت أن تشرب، ولكنها جفلت، وردت القدح الى مكانه، وضحكت ضحكة هستيرية ارتعب يحيى لها، وحملق بها. وتبدد ما كان يحس به من الارتباط بماض أليف له. الآن صارت الفتاة جزيرة عائمة لوحدها. قال:

— آسف. جعلتك تشربين... ربما على معدة خاوية.

قالت دون أن ترفع رأسها:

— لا، أبداً. تغديت غداء دسماً، فلا تقلق نفسك. من هذه الناحية.

وبهذه الكلمة انفصلت عنه أكثر. قال لها:

— لأبد أنك متأثرة؟

سكنت، ودلت رأسها وقالت:

— هل تعرف؟

نظر اليها مستفسراً. استدركت:

— لا، لا... اسمح لي. أنا مجنونة.

زاد قلقه أكثر، ونظر اليها بنشبت واستفسار. عادت تقول وكأنها وصلت الى نقطة اللاعودة، فلا بد أن تبوح بما في صدرها.

ولم تكمل أيضاً. وخيل لي يحيى سليم أن ذلك غير واقعي اطلاقاً، مثل حلم يراه في ليالي سهاده... لم يرد أن يستزيدها، لأنه تصور أن أول كلمة ستنطق بها ستحطم كل شيء بينهما وهي أيضاً لم تبد أية رغبة في أن تتكلم. كان الصمت يفصل بينهما. وكأنما هي في تلك الناحية من النهر، عند السينا الرمادية المبنى، وهو هنا، وحيد مختل بكأسه، كما هو دائماً. قال في سره: لأبأس. وحاول أن ينقطع عما هو فيه، حاول أن يشرذ عنه، الى هبولى كل الأشياء، حيث لم يولد بعد ولم يتبلور أي شيء. لم يرد أن يحطم الصمت، ولم ترد هي أن تحطمه... ولكنه راقب يدها تمتد الى القدح. فشعر وكأنها تطلب عوناً، كضربير يتلمس الطريق لعبور الشارع. قرب منها القدح، فاصطدمت أصابعهما. قالت:

— آسفة.

— عم تأسفين؟

قال بعاطفية مبتذلة:

— وهل تتصوهرين أمسيتي بدونك أقل تعكيراً؟

دلت رأسها، ورددت:

— آسفة... آسفة.

وابتسمت ابتسامة حاولت جاهدة أن تطرد بها الحزن الخيم على جبينها . أكلا وشربا صامتين مرة أخرى . حاول أن يلهبها بشيء :

— أتخبين أغاني العجر ؟

نظرت في عينيه قبل أن تجيب :

— كنت أحبها ...

— عاطفية أكثر من اللازم ؟

قالت بلهجة جادة حزينة :

— أغاني العجر لاتصلح للمدمن ... تبدو نشازاً حين تغنى بين جدران أربعة ... سترى

بنفسك ، حين يبدأون الغناء في الداخل ...

— أها ! يعني كنت هنا من قبل ؟

وذلك الشيء لم يكن يريجه ، لأنه يلصقها بماض آخر غير ماضيه . قالت ، وكأنها لم تسمع

كلامه :

— سيدوخ رأسك ، مثل رأسي الآن ...

— سنخرج قبل أن يبدأ الغناء . أنت متعبة .

صمتت ، وقالت :

— أغاني العجر تصلح للحقول الواسعة ، للطرق الكبيرة ، لقوافل العربات ، لكل شيء

إلا المدينة .

— يوجد مسرح غجري هنا ، ألم تذهبي إليه ؟

قالت بطريقة غير مباشرة :

— ربما هناك انفه ... قاعدة واسعة وديكور ... أما هنا !

قال شاعراً بالذنب :

— آسف لاختياري غير الموفق .

— لاداعي للأسف .

واتهم يحيى سليم نفسه بالغباء ، فهو لا يستطيع أن يدير حديثاً موفقاً طلياً مع امرأة ... تلك علته منذ أول لقاء له معها ، منذ أن تبرعم في قلبه الحنين الأول للالتقاء بها . ابتسم لنفسه ببلاهة ، على خيبته . رفع كأسه ، اللغة الوحيدة التي يجيدها ، والاعتراض الوحيد الذي يتجاسر على رفعه في وجه القدر . أكل وشرب بصمت . ثم رأى وجهها أمام عينيه فارغاً من أي عاطفة . وزاد ذلك من أسفه . دوامة من الأفكار الرعناء تطحن ذهنه . دخل عريس وعروسه ، وخلفهما

سنة شبان نضرين لامعين متهللين بشراً، فتیاناً وفتیات . ووجد نفسه يتتسم . التفتت ، فرأهم ، ولم تتتسم . لمعت عينها فقط لمعة ساخرة مطعونة . قالت :

— على مقربة من هنا مكتب لتسجيل الزواج .

— أنت تعرفيق هذه المنطقة جيداً .

— أنا اشتغل هنا منذ عشرة أعوام .

نظر إليها . صعب عليه أن يصدق هذا الرقم ، رغم كل الغيوم التي تجول في عينها ، رغم الجبين المدهم ، والحددين المبقعين بحمرة غير طبيعية .

جلس العروسان ومرافقهما وراءهما . بدأ المطعم يحفل بالرواد . القاعة امتلأت قبل أن يفتنا إليها . خيم ليل رصاصي محروق . وأضاءت دار السينما في الجانب المقابل أضواءها . وانسكب انعكاسها على النهر حبات صغيرة من اللؤلؤ . ياليت هذا الحوت الغافي يأخذنا الى العاصفة قال يحیی لنفسه . وانفجرت الموسيقى في الداخل بكرربة عجول ممزوجة بصهيل صناعات ، اختلطت في ثناياها طلقات زجاجات الشمبانيا تفتح من الخلف . وهاتفات : « مر ، مر » يدعون العريس ليقبل العروس ، ليتذوق شفتها وينفي المرارة عنهما . وعلى ضجيج متنافر ، خليط أصوات متشبكة . سدت الفتاة أذنيها باصبعها ، وانحنت عبر المائدة . ورأى يحیی سليم رقبتها النحيلة متشنجة الأوداج ، وهي تصرخ :

— هلا خرجنا؟

قال لنفسه : انقطع الحديث دون أن يبدأ . وأشار بيده الى مافي الزجاجاة من بقايا حمرة ، ومافي الصحون من طعام لم يمس . وتشجيعاً لها رفع كأسه ، وقرنها من كأسها . رفعت وشربت جرعتين ، وردت الكأس عن شفتها .

ساعدها في نزول الخشبة الى أرض الشارع . طاوعته ، ولكنها حين وصلت الى أرض الأمان حلت يدها من يده . امتلأت نفسه بغاز عفن خانق . قال لها بعد أن وصلت رائحة العفونة الى بلعومه :

— هل أخطأت في شيء؟

لم ترد رأساً .

— رأسي داخ... والموسيقى والصخب و...

— وماذا؟

صمتت ، وبعدها قالت :

— لايمكنك أن تفهم .

— أرجوك . ليس عقلي قاصراً .



- لا، لا، لا، أقصد ذلك .
- ماذا تقصدين، إذن؟ ماسبب ضيقك المفاجيء؟  
خرجت وأنت كالتائر الطليق، وفجأة...  
قالت بلهجة غامضة:  
— أنا مجنونة، مجنونة، ...
- وهمدت، ولم يصدر منها أي فعل آخر. قال يحيى:  
— لعل المطعم لم يعجبك...  
ندت منها « نعم » خافتة. أبدى يحيى سليم أسفه ثانية.  
عادت تقول:  
— هل تعرف؟  
— ماذا، ماذا لأعرف قولها...  
— هل تعرف أن هذا المطعم هو المكان الذي أقمنا فيه حفلة الزفاف مع المرحوم  
زوجي؟

الخرز . التهاويل . اليقظة المفروضة . وقال ثابت حسين : أعوذ بالله . ونظر في ساعته . الثالثة وعشر دقائق . رفس دثاره في ضيق ، ونظر الى رقعة الشباك الرمادية المضلعة . بدا له طرف مدخنة سوداء في الجانب الآخر من النهر كرأس نخلة محروقة . وبدأت الصور تتقاذف في رأسه . نهض من فراشه . وأطل من الشباك على النهر . كان صندل طويل يدب فيه كسلحفاة هائلة . وفي القمرة البيضاء ضوء أصفر ، ورأى شبحين أو ثلاثة يدبون على السطح . قال لنفسه : هناك من هم مستيقظون مثلي إذن ! في مثل هذه الساعة . ومدته ذلك بشيء من الراحة . وتمنى لو يمارس عملاً ، أي عمل ، في مثل هذه الساعة المتأخرة لينقضي الوقت على الأقل . لقد على المقعد الأحمر ، وسرح جسده على ظهره العالي ، واغمض عينيه . ورأى صورة ابنه خلف جفنيه المسيلين . رآه ، كما شاهده اليوم ، يوم أمس من بعيد ، برأسه الحليق الملفوف بضمادة تشبه العرقجين ، مثبتة بشريط غليظ يمتد من أذنه ، ويحيط بوجهه تحت الذقن حتى الأذن الأخرى . وكان الوجه المؤطر ببياض الشاش يبدو داكن السمرة ، مزرقاً ، خشن الملامح ، معذب التقاطيع . عيناه برقتا من بعيد بريق استغاثة . سلم عليه ، وأشار اليه أن اسكت . الكلام يحرك الضمادة ، والضمادة تحرك خيوط الشرخ ، وتنعكس ألماً ممضاً على غلاف الدماغ . أو هذا ماتخيله ثابت حسين . وكان البروفيسور كوزين قد قال له : إننا لم نمس غلاف الدماغ . فتحنا شقاً ، ودسنا قطعة لدنة من البلاستيك بين الدماغ والجمجمة ، لتقيه من الصدمات ، وخطنا الجرح . والآن ، علينا أن نتنظر إلى أن يتعود الجسم على الشيء الغريب الذي دس فيه . سيرفضه بالطبع ، ورفضه يخلف سائلاً علينا أن نسحبه باستمرار ، إلى أن يكف الجسم عن رفض الشيء ، ويصبح جزءاً منه .

وقال ثابت حسين لنفسه : كم تعذب ، ابني ! يشجون رأسه ويدخلون شيئاً زائداً فيه ! لعله الآن مستيقظ مثلي أم يقل أنه لاينام الليالي ! بماذا يفكر الآن ؟ لأظنه يفكر في الموت ، فالأطفال يخافون الموت ، ولكن لايفكرون فيه ، يخافونه كشبح ، كأحد الأشباح التي تعترض طريق حياتهم . أما تفلسف الموت ، مثلما نفعل نحن ، فلا اعتقد ... ربما هو الآن يفكر في شيء آخر ... في أمه ... في أخته . ألم يخش ، وهو العليل ، أن تنافسه ، وهي السليمة ، رغم أنها أضعف من أن تنافسه . يعني أن المرض يعيث في نفسيته ، وسيتحول الى مركب نقص ، ويظل يلازمه طوال حياته ! ظل ثابت حسين يفكر في الرأس المشجوج ، حتى أحس بشيء من الوجد

في رأسه، في موضع شذخ قديم كان قد أحدثه غصن شجرة متهدل سار تحته فشدخ جلدة رأسه. أحس به يتقلص، حتى لمسه وهو ينهض من الكرسي، وكأنما يتوقع أن يدبق الدم أصابعه مثلما حدث آنذاك. وقال لنفسه يعاتبها: أي شخ ذاك، إذا قورن بالشخ في رأس حسان؟ الشخ العميق الذي يخرق القحف. نفخ الأفكار من رأسه كما ينفض هوام الليل، وهانت عليه كل المصائب. وقال بصوت خافت: المصائب الكبيرة تلتهم المصائب الصغيرة، كما تلتهم الأسماك الكبيرة الأسماك الصغيرة. ومع ذلك، فقد شعر، وهو يحرق في بنائة المصنع المواجه له، بالشعار المنطفيء، قبيل الصباح، بالمداخن التي عادت مداخن وليست نخبلاً مقطوعة الرؤوس كتنخيل يحيى سليم. شعر بأن هذا الاحساس أعاد إليه ارتباطه بماضيه القديم. فعاد وجلس على الكرسي الأحمر وأسند كوعه على راحة يده، وطافت الذكرى في خياله تنوس كطيف. فراح يسترجع في ذهنه تلك الليلة التي شدخت فيه جلدة رأسه. كان آنذاك عائداً من لقاء أعده أحد السياسيين العراقيين المهاجرين للطلبة المفصولين واللاجئين في مصر. وعلى عادة كل لقاء انتهى بمائدة عامرة كانت تعتبر مأدبة ملكية بالنسبة لأولئك الذين تلفت معدهم من الأطعمة الرخيصة والنبذ الشبيه بالخل. كانت الجلسة مسلية، مليئة بالمفاجآت. اطمان الرجل الى أنه كسب أنصاراً، ففاض في مكنون صدره. في البداية قال انه التقى أحد الصحفيين الأمريكيين، واتفق معه على أن الوصي هو العقبة الوحيدة في طريق عراق ديمقراطي حر، وإن إزاحته هو حل لمشكلة العراق المستعصية وكان الذين تخلقوا حول المائدة يحملون بأشياء أخرى أعمق جذرية. فسكتوا واجمين، إلا هو، ثابت حسين، فقد أحس بغصة في حلقة، واحتج قائلاً ليست المشكلة متعلقة بعبد الاله، بل بنظام كامل قائم على أسس غير سليمة تولد ألف عبد الاله. نظر السياسي اليه خزرأ، وقال يعني تريد قتلاً ودماء، ثورة حمراء؟ وأغلق النقاش الى هذا الحد. فقد كان الرجل متمسكاً برأيه الى حد القناعة المدمرة لكل نقاش. ثم لايدري ثابت حسين كيف ذكر اسم هتلر على المائدة. فالتفت السياسي الى الذين يتناقشون في امر هتلر، وقال: عجيب لماذا يشتم الناس هتلر؟ لقد عمل الشيء الكثير لأمنه. وأراد أن يجعل لكل أفراد الشعب سيارة، فصنع «الفولكس واكن» وتعني بالألمانية سيارة الشعب. فمذا يريدون منه؟ قال طالب مفصول من الديوانية ساخرأ: نحن نريد من السياسي المنتظر حذاء لكل فرد من أفراد الشعب. وضحكوا. وامتعض السياسي. وقال: قبل أن تلبس الحافي حذاء يجب أن تعلمه كيف يغسل رجليه، علمه النظافة. ونوه بأفكار حادة. وقال: هل تظنه سيغسل رجليه إذا وفرت له الماء والصابون؟ لا، أبداً. لن يغسلهما إلا إذا أوققت على رأسه شريطاً، ويده عصا. قال أحدهم: سيكون لنا من الشرطة أكثر من نصف سكان العراق. وضحكوا. وقال السياسي: لاتضحكوا. أنا سياسي ومجرب، وأعرف أحوال العراق، لاينفع بسكانه إلا العصا والشدة. لا، لن يقادوا باللين واللطف والنصيحة. خذوا مني عهداً صادقاً. تفرقوا عند

المساء، وشعر ثابت حسين بثقل الرصاص في صدره . انفصل عن رفاقه وسار على النيل . كان الليل قد خيم . وبدأت العوامات على يساره ترسل أضواءها الخافتة . وفجأة أحس بالضياح ، وكأنما أضل الطريق الذي كان واضحاً أمامه قبل ساعات . وفكر في ذلك المستقبل الغامض الذي يخططون له ، بمعزل عن الآخرين ووفق تصوراتهم الخاصة . كانت الكلمات الحجارة ، الأحكام السكاكين تطعن فؤاده ، وتذره بشيء مقلق بين الحتمية والاحتمال . وفجأة أحس بشفرة تشرط الجانب الأيسر من رأسه فوق الجبين ، ويشتعل الجرح ناراً لاهبة . مس رأسه فتلذجت أصابعه . والدم بدا في حلقة الليل كلطخة مازوت حارة . وأحس بطعم الرماد والدم في فمه . وكأن المستقبل يمد له لسانه الدامي .

تلمظ ثابت حسين الآن ، وفرك شفتيه ، وكأنه انتهى من حوار طويل مع الماضي ، ونهض من مقعده موجع المفاصل ، بدأت الدنيا تننور خارج النافذة ، ولاحت المداخلن حقيقة محروقة . رمقها بنظرة ثكلى ، وكأنما يحسدها على الصمود خارج الليل والأرق ، دون أن تصاب بأذى ، وليست كمثلثه مثقل النفس برصاص السهاد . عاد الى فراشه ، وسجى نفسه محاولاً أن يغيب في لجمة النوم عند الفجر ، مخلقاً أشباح الماضي وراء جفنيه المغمضين . ولم يعرف كيف جاءه النوم . ولكنه فتح عينيه ثانية على نهار صاف .

في حين هب يحيى سليم فزعاً طريد حلم مزعج . رأى نفسه يغوص في سرب من الأرض كالسلم الكهربائي الذي يهبط الى قاع المترو ، حاملاً معه كمية كبيرة من اللحم والعظام ، منتظراً تلك اللحظة الرهيبية ، حين تصل الدرجة الواقف عليها من السلم الى فوهة عمياء أشبه بفوهة مآكنة فرم اللحم تسحق بين فكوكها الحديدية كل شيء ، تسحقه هو وما يحمله . وقبل أن يصل الى ذلك بلمحة ، خطر في باله أنه نائم ، فتح عينيه وهب من نومه . مد ذراعه الى جهاز الراديو ، فتحه ، لمجرد أن يثبت لنفسه أنه حي . أو يعيد ربط نبضه بنبض العالم ، كما يحلو له أن يقول . سمع خرخشة وجواراً بلغة غريبة عليه . نهض من فراشه ، وتمطى ، وذهب الى النافذة العريضة ، وقال بصوت مسموع : « أيها العالم ، أنا هنا ، هل نسيته ؟ » . وفي الأسفل كان رجال العالم ونساؤه يسعون في مناكبهم . رأى الورق والقواميس في انتظاره . وبرطم . ذهب وادى فرائض الصباح . ودخل المطبخ . لمح ( أو شبه له ) صفار البيضة القديم على مربع الأرض . قال لنفسه : الأرض الناشفة تحتفظ بآثار الماضي ، فكيف بالدماغ الحي . زاول مايزوله كل صباح ، قبل أن ينكبس خلف مكتبه مشنوقاً بحبال الكلمات .

دق الجرس دقات مزعجة . كان صالح جميل في نوم الضحى اللذيذ مخدراً مرتخي الجسم تماماً ، فأحس وكأنما طعن في خاصرته . انقلب على جنبه ، ولف رأسه بالبطانية ، واستسلم لمغناطيس النوم الذي يجذب جسده الى الفراش .

كانت الدقات لجوجة كالذباب في سطوح بغداد عند الصبح ظلت تلح وتلح . أزاح الغطاء عن جسده ونزل من السرير حافياً ، في الفانيله واللباس ، مغمض العينين تقريباً ، واتجه الى أقصى الدهليز ، ورفع سماعة التلفون ، وقال : نعم ! كان التلفون صامتاً ، أو بالأحرى ، فيه قرقرة الشاغر الطويلة . قال لنفسه أياه ، خلصنا من هذا اللجوج الذي يخابرنى في الصباح الباكر . وعاد الى فراشه . ولكنه قبل أن ينام ، دق الجرس ثانية . وعندئذ فقط فطن الى أنه جرس الباب . لبس بنطلونه الممدود على الكرسي عرضاً ، وثوبه الأخضر الملبس على ظهر الكرسي ، وهرع الى الباب ، حافي القدمين . فتحه وفي ظلمة فسحة الدرج رأى شيئاً رمادياً أو أسود مكوراً . فتح عينيه للزجتين ، وقال :

— آه ، جميلة ! ... ماذا جاء بك ؟

قالت وهي تدخل الباب :

— قلت لك من قبل تجونه لو نجيكم ... أحباب كلبي !

قال : « ايه » ملتزجة . ثم « اقعدى . ساتيك بعد ربع لحظة ! »

وعاد بعد عشر دقائق أبيض محمراً حليقاً تزين وجهه بعض نجوم الدم الصغيرة . وقال لها :

— كيف وصلت الى البيت ؟

— بالتكسي . عندي هذه الورقة وأشوفها للناس بالاشارات . وامرأة ، الله يرضى عليها ،

ركبت معي المصعد ، وأشارت الى الشقة . ودققت الجرس وظللت أدق الى أن جئت أنت وفتحت الباب .

ضحك صالح جميل من فم يشكو من وجع أسنان مزمن ، ولكنه لم يغط فمه هذه المرة .

بل مسد على شاربه الأشيب . قال لها :

— فطرت ؟

— ظل فطور ؟ الدنيا ضحى .

— الله يلعنك ، أيقظتني من نوم الضحى الجميل .

— ولماذا لاتكون اللعنة عليك ، وقد صار لك يومين غائباً عني ؟

— انتظري . لاتبدئي العتاب . سأسلق لي « سجقاً » أو مايسمى عندنا « ...

القاضي » . ربما تأكلين قليلاً ، أو تشربين قدح بيرة مثلجاً ؟

— لا ، عيني ، من يوم ما جئت تلفت معدتي . تغير الأكل علي . وأنت ، الله يحفظك ،

ترقني ...

ناد برأسه ونظر اليها من تحت حاجبيه الكثيفين . وقال :

— لو كنت لاتريدين لما قبلت أن تشربي . ولكن الجرثومة كامنة في أجسادنا كما يبدو .

— أية جرثومة ؟

— جرثومة الشرب .

قالها وهو يدير لها ظهره، وينصرف لتحضير الفطور له ولما عاد رآها تنظر في النافذة . كانت ترى في الشارع قرب البيت، تلالاً كثيرة من الصناديق الخشبية المليئة بالزجاجات الفارغة . قالت :

— هذه كلها شربتها أنت؟

قال مازحاً :

— لا، أنا والجيران . اقعدي . واحكي لي لماذا جئت حقاً؟ قعدت، وقالت :

— أنت تعرف أنا مسافرة يوم الجمعة . بعد بكرة قل لي : ماذا سأقول لأهلي عنك؟

— من أي ناحية؟

— من أي ناحية! من ناحية الدراسة!

قال وهو يقطع السجق الى قطع صغيرة يسكين مقعر الحد من كثرة الاستعمال :

— قولي لهم صالح مجتهد، مجتهد بالدراسة و...

عاجلته قبل أن يتم كلامه :

— صار لك عشرين سنة، وأنت مجتهد بالدراسة . ولكن متى ستنهها؟

قال قبل أن يضع قطعة السجق الوردية في فمه :

— اللي انتهوا منها ماتوا، على وزن المثل المصري : اللي اختشوا ماتوا . الذين انتهوا دراستهم

لا يعرفون أين يذهبون الآن ...

— وتظل طول عمرك تدرس؟

— أظن . هل تعرفين أغنازيو سيلونه الكاتب الايطالي؟ عنده بطل في أحد رواياته تجاوز

الخمسين وهو طالب، حتى سمي بالطالب الأبدي . وأنا لم أتجاوز الأربعين إلا قبل ... يعني لم أبلغ الخمسين .

— يعني : أقول لهم بعد عشر سنين تخلص؟

— لاتقولي لهم شيئاً . لاتحددي المدة ... دعهم ينتظرون .

نظرت اليه نظرة كئيبة وقالت :

— لا، صحيح، صالح، ماذا أقول لهم؟

كان ما يزال يقطع السجق بيدين مرتجتين فقال لها :

— قولي لهم : علاقته مع يده ليست على مايرام .

لم تفهم كلامه تماماً . قالت :

— وتركت كتابة الرسائل لنا أيضاً .

— كيف اكتبها اذا فقدت السيطرة على يدي؟

- كيف؟
- ها أنت ترين . إنها لانتطاوعني إنها في حالة تدهور فلا تمسك بالقلم .
- كان السكين يتزحلق في الماعون ، ويصدر صوتاً خشناً قالت له :
- عالجها ...
- بربر لها ، فنظرت اليه باشفاق . قال :
- هناك حالات ميغوس منها . لاعلاج لها . فهل استطاع أبي أن يعالج حالته المالية ، وحين تدهورت؟
- ولكن أخوتك صارت لهم بيوت .
- في الغربية يصعب تكوين البيوت ... إلا إذا كانت من الرمال . ونفخة ربح وتزول ...
- وأنا لأحب الرمال .
- أنا لأستطيع أن أفهمك .
- وأنا أيضاً لأستطيع أن أفهم نفسي فكيف أفهمك؟
- بأية لغة تتكلم معها ...
- مع من؟
- مع نفسك ...
- فقدت اللغة التي أستطيع أن أتكلم معها بالعربية أو بالأعجمية التي لأجيدها ...
- أوه ، جميلة ، أنت تضايقيني بأسئلتك ...
- حدقت في شعره الأشيب وقالت لنفسها :
- « هذا من تغير الماء عليه » . وطافت في ذهنها البلدان التي درس فيها . كم هي كثيرة ومتباعدة . وقال بصوت مسموع :
- تركيا ، لندن ، و ...
- عرف ماترمي اليه ؛ فأكمل قائلاً : والحبل على الجرار .
- وفي نفس ذلك الضحى فرك علوان شاكر باطني كفيه بحماس جدل ، واستنشق نشقتين وطبتين ، وقال لزوجته الجالسة أمامه :
- ستعجبك أطروحتي بالتأكيد .
- كانت زوجته مطوية اليدين ، تنظر اليه بتحد ، كانت تعرف أو تعودت أن تعيده الى حجمه الطبيعي . وقالت :
- أنت دائماً تنفءل بالخير ... ولكن قلما تجده .
- لا ، يارسمية ، صدقيني . الأساتذة كلهم معجبون . يقولون : بحر من المعلومات ، ودقة في التحليل ، وموضوعية في الأحكام ، وجزالة في الأسلوب . ربما هذه أول وأحسن رسالة كتبت

عن القرامطة . أنت لاتستطيعين أن تقدرى جهدي حق القدر ، إلا إذا عرفت قلة المصادر .  
ولكن الأنبياء في أوطانهم ....

قالت بين المدح والذم :

— كل مأحشاه أن يجعلك اهتمامك الشديد بالقرامطة أن تكون قرمطياً مثلهم ، نبياً  
قرمطياً .

— أنت لاتعرفين شيئاً عن القرامطة .

— أعرف أنهم يبيحون لأنفسهم حرية أكثر من اللازم . أنت قرمطي أصيل .

— رجعنا؟ أنت أمية . لماذا لاتأخذين أول طائرة ، وتعودين الى بغداد .

— واتركك هنا تسرح؟ وتفرح؟

— ستسمين حياتك بالازتياب .

— لن أعود إلا معك .

— أنا لأعود إلا بعد أن أدافع عن أطروحتي ولكنك ستأكلين رأسي .

— وتظلين تأكلين رأسي .

— مادمت تستقبل عشرين مكالمة نسائية في اليوم .

— اجعلها خمسين .

— الرقم لايهم .

وقال صالح لأخته بعد أن فرغا من العتاب دون أن يقنع أحدهما الآخر .

— مارأيك بقدح مثلج من البيرة .

— لا ، عيني ، رأسي يدوخ ، وبعد يومين مسافرة .

— إذن ، اسمحي لي أن أشرب قدحاً ، واخرج معك .

وتمدد يحيى سليم على سريره موجه المفاصل . انهي حصته من العمل اليومي . فماذا يفعل

الآن؟ يذهب الى السينما؟ فات وقت الذهاب الى السينما . والمسرح يطرح عليه مشاكل

لاتلامس مشاكله أم لعله يتلفن الى صديقه صاحب . « البوكس الحديدي » . ربما هو الآن

مع ابنه في المستشفى . وأنا ، أين ابني؟ أصبح لي اثنان يسميانني عمي ، ولا أحد يسميني بابا .

لعنة الأبوة تتحاشاني من بين كل اللعنات الأخرى . ولكن وكيف من بين كل اللعنات؟ ولعنة

الفشل؟ أليست ملتصقة بك التصاق شعرك بجلدة رأسك؟ والغربة؟ ألا تحس بها كالسلاية

تحت أظافرك؟ أوه ، اللعنات كثيرة . ولكن المهم الصمود أمام اللعنات أيضاً . سأقول ذلك

لثابت حسين ، الواعظ بالصمود في كل الأحوال . يعني ، ماتزال لدي امكانيات . وعلى العموم ،

كما سيقول ثابت حسين ، الموت وحده هو الذي يضع حداً لكل امكانية . ولكل حالة احتمالاتها

و ... مجرد وأن المصادفة لاتخدمني ... حظي عاثر أو عاثر ... كلاهما يؤدي المعنى ولكن كيف



نسيت أن أسجل في «الفروسية المهزومية» دور المصادفة في حياتي، أية مصادفة دفعتني الى أن أختار ذلك اليوم بالذات لأذهب اليها في مكان عملها، وأن آخذها عبر دروب معينة، وأن « يصادفنا » ذلك المطعم العجري بالذات، الذي صادف أن دخلته مع عريسها ذات مرة، وصادف أن يدخل فيه عروسان جديدان أثارا شجنتها، بالتأكيد، ذكرها يوم دخلت مع زوجها ذات مرة — وصادف أن جلس العروسان وراءنا، وصادف أن تكلمنا عنهما، وصادف، وصادف. وقال يحيى سليم لنفسه: هل يقر ثابت حسين بالمصادفة، وماذا يعتبرها عملياً؟ أهى « لحظة » خارج الزمن لاتدخل أو تدخل في تعيين « اللحظات الثورية ». سأكلمه حتماً، اليوم، مساء حين نلتقي ...

ودق جرس التلفون، فرجع يحيى سليم السماعه كاللهوف .

جلس يحيى سليم قبالة ثابت حسين في المقهى الوحيد لشرب الشاي في هذه المدينة الواسعة. الموائد صقيلة بنية من خشب البلوط السميك، والسماورات الذهبية تزين الأركان، وأباريق الشاي من مختلف الحجم على الموائد وعلى المنصات، والدمى القماشية الزاهية الألوان اللابسة تنانير بيضاء وخضراء وزرقاء وحمراء. وفي الجو رائحة عسلية شذية دافئة. والتدخين ممنوع.

- كيف حال حسوني؟
- اليوم سمحوا لي بمجالسته. حالته في تحسن.
- كم مضى عليه في المستشفى؟
- ثمانية أشهر.
- نعم، أنا أذكر أنك جئت في الخريف الماضي، جيتك الأولى، وهذه الجية.
- سأكمل أربعة شهور هنا. لا أعرف ماذا سيقول صاحب المطبعة. طلبت منه تمديد الاجازة مرتين.
- تخاف أن يفصلك.
- لست خائفاً. وكأنه أول فصل في حياتي. أنا مرتاح لأنني ساعدت ابني على استعادة ذاكرته لاسيما و...
- لاسيما وهو ابنك.
- لاسيما وأنا أشعر بأنني مسؤول عما حصل له. لقد كان دائماً يلازمي الاحساس بالمسؤولية الإرادية إزاء عائلتي، ولكنني الآن أشعر بمسؤولية مضاعفة فقد كان من الممكن أن أذهب أنا وأن يقع الحادث معي، أو لا يحصل...
- على أية حال مصادفة. ولكنني أشعر بالمسؤولية المزدوجة إزاء ما حصل.
- قال يحيى وهو ينحرف بالحديث الى اتجاه آخر لغاية في نفسه:
- نعم، المصادفة، ولكنها المصادفة السيئة.
- والقدر، هذا الذي يضحك علينا؟
- بعض الناس يسمونه القدر، ويعرونه الى قوة خارجة عن ارادة الانسان.

— ماهي المصادفة، إذن أليست قوة خارجة عن ارادة الانسان ؟  
— يقولون أنها تجمع عدة عوامل كنا نجهلها حتى تلك اللحظة التي تقع فيها المصادفة،  
أو شيء من هذا القبيل .

انكمش يحيى سليم على نفسه يفكر، وراح يعبث لارادياً بقدرح الشاي الفارغ أمامه .  
صمت صمتاً طويلاً، أطول من أن يطيقه محدثه، الذي كان ينظر اليه بإمعان : الجبهة العريضة  
المحزوزة بمخطوط طولانية، والشعر الأسود الكث الأشيب عند الفودين . والجفنين المسبلين ،  
والأنف المكور فوق الشارب السميكة، والشفة السفلى المخطوطة، والفك المرتخي . الوجه كله  
جامد يتسمع الى ماجري في أعماق النفس . تركه ثابت في حالة الغيبوبة هذه، حتى لمعت  
عيناه، من تحت الجفنين المرفوعتين، ورفت على الوجه نسمة حركة . فقال ثابت :  
— ايه، هل عندك شيء ضد المصادفة ؟

ابتسم يحيى سليم ابتسامة ساخرة تجلت فيها مرارة قلبه، وقال :  
— وأنت ؟

— معها، إذا كانت حسنة .

قال يحيى كالمستغيث :

— وأين منا؟ المصادفات الحسنة؟ هل تذكر واحدة حصلت لك؟ أما أنا فلا أذكر،  
لأذكر .

كرر بسرعة ونظر في وجه صديقه، وراح يقص عليه المصادفات التي حصلت في  
حياته ... الى مصادفة المطعم الفجري، حين قال :

— ايه قوة عجيبية دفعت أرجلنا باتجاه هذا المطعم الكريه؟ اجتزنا شوارع عديدة، رأينا  
فيها مقاهي ومطاعم مرزنا بها مر الكرام، ولم يخطر ببالي أن اختار واحداً منها، مع أنني كنت  
أحس بالتعب من السير في الطرقات، حتى رأيت ذلك المطعم القبيح المصبوغ بالأزرق فدعوتها  
اليه . ويحدث ما يحدث .

ضحك ثابت واستغفر يحيى . قال :

— لماذا تضحك مني، يا صديق « البوكس » الحديدي؟

— لأضحك منك، ولكن من حرارتك الزائدة . لماذا لاتأخذ الأمور مأخذ أسهل؟ لماذا

تحاول أن تفسر كل شيء لغير صالحك؟

— وأين هذا من صالحني؟

— وهل انتهت الدنيا بهذا الحادث .

— انتهت علاقتي بتلك الفتاة . لن أكلمها . وهي من جانبها لم تعد تكلمني بالتلفون .

يعني ، محاولة أخرى من محاولاتي الفاشلة .  
— خذ الأمور كما هي ، ولا تعتبر ذلك آخر الدنيا . أنت تأكل نفسك بنفسك . اخرج  
من قوقعة ذاتك .

— تريد أن تقول أنني أناني ؟  
لوى ثابت رقبته ، ولم يقل شيئاً . فمضى يحبى سليم يدافع عن نفسه :  
— كل مافي الأمر أنني ألوف أكثر من اللازم . انتشبت بالأشياء التي تهرب مني ، وأذعن  
لقول المتنبي : خلقت ألوفاً لو رحلت الى الصبا ، لفارقت شبيبي موجع القلب بالياً .  
وأشار الى الشيب في فوديه .  
— هذا صحيح أيضاً .

— أنا أعرف نفسي . وهل أنت تنسي الناس والأشياء ؟  
— لا ، قطعاً ، ولكن أستطيع الانتقال منها الى أشياء جديدة ، مع الاحتفاظ بذكرياتي في  
زاوية من ذهني ، ولا أدعها تنفي على الذكريات الأخرى .  
— وهل تتصور أنني لم أحاول ذلك ؟ كل حياتي محاولات للانتقال وتجاوز الأشياء  
القديمة . ألا يكفيني أنني انتقلت من قارة الى أخرى ، كما يمكن أن يقال ، مكرهاً أو بدافع إيجاد  
صيغة أخرى لحياتي ، وفتشت عن هذه الحياة الجديدة ، بانتخاذ حرفة جديدة ، وأصدقاء جدد  
وبكذا وكذا ... أنت تعرف قصتي ولا حاجة الى إعادة تفاصيلها .

— أرجوك ... لاتمن لي هذا المصير .  
— شفت ؟ يعني تخاف أن يكون لك مصيرنا .  
— من يدري ! أنا لأضمن لك ... ليس هناك شيء مضمون غير أن تشرق الشمس كل  
صباح ... وما الى ذلك ...

رفع يحبى سليم قده الشاي الفارغ ووضعه حتى أصدر صوتاً قاطعاً كمطرقة حالم ، وقال  
كالصارخ :

— أنت أيضاً فلك تدور حول فناعاتك وآرائك غير القابلة للنقاش ... أنت لم تتغير كلياً  
منذ أن عرفتك في المتوسطة . تتباهى بالصمود ، بينما ليست لديك الشجاعة على أن تضمن غير  
شروق الشمس كل صباح ...

— هذا رأيك ... وسمعت أكثر من مرة .  
— أنت تخاف الفشل ... بينما أنا لأخافه ... من لا يجرب لايفشل ... بينما سأظل  
أجرب ، وأجرب ... رغم مأساوية حياتي .

— حياتك ليست مأساوية إلا بالقدر الذي تشددت أنت فيها على جوانبها الكالحة .  
سكت يحبى سليم ، ودلى رأسه ، وعانين في قدحه الفارغ ولم ير ثابت حسين عينيه ولا

حولهما إلا حين رفع رأسه، وقال :

— قل لي، ثابت ...

ولاح الحول كأقبح مايكون، حين زاغت عيناه، قبل أن يحاول أن يثبتها في نقطة واحدة .  
— لأدري، ولكنني أتصوركم، أنتم المعتريين هنا لهذا السبب أو ذاك، أفلاكاً تدور حول  
نفسها وتريد، إن لم تخضع العالم الموجود خارجها، فعلى الأقل أن يعترف هذا العالم بها كأفلاك  
مضطرة، لسبب غير مقنع كثيراً بأن تنسج حولها شرائق وحدتها القاتلة .

— طيب، وبماذا تنصحها؟

— أن تخرج من هذا التصور، أن تخرج من محيطها الذي يوهيها بهذا التصور .

— وأنا؟ ألم أخرج ... لقد حدثتك قبل قليل .

— هذا ليس خروجاً . هذا دوران في البقعة . قل لي، يا يحيى، هل تعرف من العراقيين

غير هؤلاء الذين يتلفنون لك ليدعوك الى مائدة شراب؟

— تقصد من؟

— وهل خلت هذه المدينة العظيمة إلا من بضعة أشخاص يتحلقون حول الموائد؟ هناك  
الطلبة المجدون الذين لايجلسون في المطاعم، لأنهم لايملكون مايدفعونه فيها ثمناً للطعام والشراب،  
وهناك الذين يتشوقون للذهاب الى المسارح . وهناك الذين ينيشون في المكتبات العامة . وعلى  
العموم هناك أناس يعيشون طرازاً من الحياة أكثر جدية، ولهذا هم أكثر تفاؤلاً....

بدا العجوس على وجه يحيى، وتكور شاربه حول فمه . وقال بعد لحظة صمت :

— أوه، الوعظ ! أنا متأكد من أنك، لو كتب لك أن تأتي الى هنا ستصير مثلنا، ولن

تكون لك الرغبة في الذهاب الى المسرح .

— قل لي ثابت . أيهما أهون على الانسان — وصمت لحظات أخرى — أيهما

أهون : — أن يكون له ابن ... ماذا تسميه؟ .. ابن معطوب، أم أن يكون له ابن بعيد لايعرف

أنه أبوه، ويسميه عمي؟

جوبه ثابت بهذا السؤال . ولم يعرف كيف يجيب — وقال :

— إنه سؤال ضيق ولم أكن أتوقع أن يطرح عليّ . ولكنني أعتقد من الأفضل أن تسأل

هذا السؤال : أيهما أهون على الانسان : أن يكون له في وطنه مكان مضمون، أم أن يكون

طريداً محروماً منه؟

تعبس يحيى واعتبر ذلك استفزازاً، فقال لثابت بلهجة ساخرة :

— وهل تظن أن لك مكاناً مضموناً في وطنك؟

— ليس مضموناً، ولكن أكافح قدر الامكان ليكون مضموناً .

— أي نعم، أنت لاتضمن إلا شروق الشمس كل صباح، ولكن ألا تستحي، وأنت

الصحفي القدير، وصاحب شهادة جامعية وتاريخ طويل، أن تشتغل وكيل مدير مطبعة تطبع الاعلانات وبطاقات الدعوات للزفاف، والوصلات وغير ذلك؟

— تريد أن تقول نحن متساويان؟ كلانا يعيش في غير محله.

— المهم أن تكون لك في وطنك الحرية الكافية لأن تمارسك عمك الأصلي، لا

المرزف... هذا ما أريد أن أقوله، وأن تمارسه بالشكل الذي يريح ضميرك...

— ولكن المسؤولية، المسؤولية، يا يحيى... المسؤولية لاتشعر بها وأنت خارج الوطن...

لقد تجمدت عندك الى حد... فقدان الاحساس بها حتى بالنسبة لابنك... هذا الفرق بيني وبينك: أنا أحس بالمسؤولية إزاء ابني، وأنت لاتحس بها.

— هل تحس بالمسؤولية إزاء ابنك؟... هذه النقطة التي انطلق جدلنا منها.

قال يحيى سليم بدون تفكير:

— احساسني بالمسؤولية إزاء وطني هو مثل احساسني بالمسؤولية إزاء ابني. كلا

الاحساسين خنقتهما يد لثيمة عن قصد أو غير قصد... مثلما انقلب وطني الى وطن للآخرين يسرحون ويمرحون فيه وحدهم، انقلب ابني الى ابن أخ لي، وملكاً حلالاً للآخرين.

— طيب، هذا الذي هو ابن أخيك الآن... ألا تشعر بالمسؤولية إزاءه؟

— أي نوع من المسؤولية إذا كان بعيداً عني، تفصلني عنه جبال وأهوال؟ أما أنت

فابنك جنبك، ولا أحد ينكر أبوتك له، ولايتقصد فك ارتباطك به... بينما في حالتي يوجد هذا الشخص.

— تقصد زوجتك؟

— ومن أوحى لها بهذه الفكرة.

— ألم تتكلم معها، تجادلها؟ كيف فسرت لك سلوكها؟

— فسرت، ولكن بشكل غير مقنع، على الأقل بالنسبة لي.

— كيف؟

— تقول لأريد أن أحدث شرحاً في نفسية الطفل. أريده أن ينشأ سوياً من الناحية

النفسية. ومادما قد انفصلنا. ولم نستطع العيش سوياً فليكن في ذهنه أن أباه خارج في سفر بعيد، حتى لأدخله في قضية لايفهمها... على الأقل وهو في سن التكوين.

— ربما تفسيرها صحيح من وجهة نظرها.

— طيب، ولماذا تأتي وتنبش الماضي؟

— تصورتك ستفرح بهذه المناسبة، أن ترى ابنك. ألم تقض، معه أوقاتاً سعيدة؟

— هذا منسجم مع روح القانون العراقي القائل: يحق لكل عراقي مغترب زيارة بلده لمدة

لاتتجاوز الشهر؟

- ضحك ثابت ، وقال بمغزى .  
 — على أن يكون ذلك بشكل مفاجيء دفعا لكل محذور .  
 — لكل مصادفة سيئة ...  
 وضحك يحى هو الآخر . حتى سمع من يقول :  
 — وهل تعتبر مصادفة سيئة ... أن نجدكما هنا ؟  
 رفع الصديقان رأسيهما فرأيا صالح جميل وعلوان شاكر فوق رأسيهما . جلسا قبالتهما قبل  
 أن يدعيا . قال صالح جميل محتجاً وهو يدير رأسه في المقهى :  
 — كيف عثرتم على هذا المقهى التعيس ؟  
 — من يفتش يجد .  
 كان علوان شاكر في حالة عصبية ، لأنه كان يعث بطرف شاربه . قال صالح جميل :  
 — هذه أول مرة أدخل الى هذا المقهى . ماذا يقدمون فيه ؟  
 — الشاي فقط ؟  
 — وهل هناك مجانين يشربون الشاي في الساعة الثانية ؟  
 — كل الذين تراهم هنا رزينين ، هم مجانين في مقياسك .  
 ونحن أيضاً منهم . كم تركيزك ؟  
 — قدح شهبانيا ، وزجاجة بيرة ، كفيك الله !  
 قال يحى لثابت :  
 — هذا فلك آخر .  
 — فلك؟! لا أبداً . أنا قاعد أبداً ، بينما الفلك دوار .  
 — لا تخف ! أنت أيضاً تدور ، ولكن حول نفسك ، حسب نظرية ثابت الشخصية .  
 — أعوذ بالله ! وهل أنا مجنون لأدور حول نفسي ؟  
 تبرع علوان شاكر ليقول بلهجته الاستاذية القاطعة .  
 — ومن يشرب الخمر في النهار غير المجنون ؟  
 — يا أخي ، أنا أشربها بفلوسي .  
 — حتى هذا .  
 — ولأعتدي على أحد .  
 — حتى ولو كان هذا .  
 — الله ! يا أخي ، أريد أن أتمتع بحريتي دون أن أضغط على حرية الآخرين . خلاف الذين  
 يتصرفون بالعكس . بربكم : أهذا جنون ؟  
 قال يحى بلهجة حيادية :

— الجنون أُلوان .

دافع صالح عن نفسه بحدة ليعم الجنون الجميع :

— والله ، كلكم تتمنون أن تكونوا مثلي ... تجنون هذا الجنون النشوان — ثم غيّر

لهجته — صحيح لا يوجد في هذا المقهى غير الشاي؟

— ها أنت ترى ماذا على الموائد .

التفت صالح الى علوان وقال مؤنباً :

— ولماذا جئت بي الى هنا؟

صاح به علوان :

— قلت لك لا ستري شيئاً . والمخزن المجاور لا يفتح إلا في الساعة الثالثة ... على الأقل

لنقعد ، ونبلل ريقنا . الخاتونة زوجتي لا تحب أن تشرب إلا الشاي العراقي .

سأل يحيى سليم :

— تلك التي شتمتنا؟ من ورائك لحقتنا شتيمة .

— إنها تشتم كل الناس ، فلا تتأثر .

— لا ، والله أتأثر . ولماذا تهنمنا بالدعارة ، منذ أول لقاء بيننا؟

قال صالح جميل يخفف الموقف :

— كلنا داعرون ، والحمد لله . انهضوا لنذهب الى مقهى يباع فيه الكحول .

— نحن باقيان هنا .

— وأنا أيضاً أريد أن استريح من توتر الأعصاب .

— يعني ، أنا وحدي السكرير؟ أعوذ بالله . الحق مع زوجة علوان . كلكم والله ، مثلي ،

ولكنكم تتظاهرون بالعفة .

— صالح رائحتك تفوح في كل المقهى .

— طبعاً ، في مقهى لا تشم فيه غير خميرة الشاي .

— ولماذا لا تشرب الشاي وتهدأ؟

— الشاي للصباح .

— وهل رأيت صباحاً في حياتك — قال يحيى سليم — صباحه يبدأ بعد الساعة الثانية

عشرة

وخلال ذلك جاءت النادلّة ، وقدمت لهما قَدحين وابريق شاي . وقال علوان :

— اشرب ، يا أخي ، وهدىء نفسك .

— نفسي هادئة . نفسك هي اللابئة . ملأت رأسي اليوم بالشكوى .

— نحن لم نلتق إلا قبل نصف ساعة .



— أقصد خلال نصف ساعة . ألا تكفي نصف ساعة للشكوى؟ أنا وحدي الذي لأشكو . ومافائدة الشكوى؟ الشكوى للعاجزين .

ادلمت وجوه . وبحث صالح جميل عن قدحه ، فوجده ساخناً ، فارتدت يده عنه . أعماقه ملتبهه دائماً ، فهو يبحث عن مبرد لها . لم يجده . تجهم لحظات صمت ثقيلة أمضاها صالح جميل في تمنع أصابعه القصيرة المتورمة .  
قال سهواً :

— أصابعي لم تعد تمسك القلم .

اهتبلها علوان شاعر فرصة :

— أها ! أليست هذه شكوى ، أيها العاجز؟

ضحكوا . واعتبر علوان نفسه منتصراً . قال بحكمة عالم :

— الشكوى تنفيس ، وإلا انفجر الانسان كالنفاخة التي عبت بهواء أكثر من طاقها .

لعب بشاربه ، وتابع وسط صمت حيادي :

— قيل لصالح ذات مرة أن فلاناً يستحم في الأسبوع مرة ، فتعجب وقال : عكركة خو

مو عكركة !

ضحكوا ثانية . وزاد ذلك من شعور علوان بالانتصار . كان يتنسم ابتسامة مشرقة من

تحت شارب فاحم لولا خيوط الشيب القليلة فيه .

قال صالح مستفزاً :

— هكذا تهينني؟ أصبحت نبياً عندما حطت عليك زوجتك كمالك هابط من

السماء .

— هذا مايشاع عنك . أما مسألة زوجتي ، فتمهل ، وسأطلقها قسماً بالله ، سأطلقها .

وزاد عبثه بشاربه ، وتابع منكساً رأسه :

— سأطلقها مثلما فعل يحيى سليم بزوجه القديمة . وفي حالي أنا سأكون أنا المطلق .

نظر يحيى سليم اليه شزراً . لم ير إلا الجبين العريض والصلع الذي يزيد ارتفاعاً . وقال

لنفسه : إنه يهينني ، مثلما أهانتني زوجتي . وشعر علوان شاعر بأنه لم يوفق بالمقارنة ، في جو

جدي بارد ، فأخذ يبرر فعلته بالشكوى من زوجته .

— ستقتلني رسمية . لن تتعلم حتى لو وضعتها في أكثر بقاع العالم حضارة . وأية بقعة

أكثر حضارة من هذا البلد؟ البلد الحلم ، البلد المجاهد . ولكنها تتصرف بابتدال بيتي بورجوازي

حقير .

ورفع بصره ، ونظر الى الوجوه المنكفئة على نفسها ، إلا وجه ثابت حسين ، فقد لاح عليه

استهجان واستغراب . راح يخاطبه مستجدياً عطفه :

— هل تعرف أنني لم أتناول لقمة حتى الآن ؟ اشرب الشاي على معدة خاوية ، أثارت أعصابي رمت نصف قدر كاملاً من طبيخ البارحة في الزبالة — لم استطع كتابان هيجاني ، فقلت لها : رسمية ، هل تعرفين كم عدد الجياع في العالم ؟ عشرات الملايين ، وأنت ترمين طعاماً في الزبالة يكفي لخمسة أفواه جائعة ؟

أجابتي ببرود أعصاب : لا يوجد جياع في هذا البلد . هذا صحيح ، ولكنه تذيير متعمد ، وهدر للامكانيات . ولماذا تفعل ذلك ، ونحن ضيوف ؟ هل تستطيعين أن تفعلي ذلك في العراق ؟ ردت علي بنفس البرود : الحالة هناك تختلف . قلت : تختلف ولكن ليس لهذا السبب ، بل لأن الفلوس التي نكسبها هناك لاتسمح لنا بالتبذير .

كان الجميع صامتين . وكان صالح جميل يعاني من كبت خاص به ، فقد كان يمس قذح الشاي الآخذ بالبرود ، ويسحب أصابعه منه ، ويتلفت باحثاً عن شيء مفقود في هذا المقهى الخائتق . هم أن يقول شيئاً لعلوان شاكر ، ولكنه ظل يسند جمعي يديه على خاصرتيه ، وكوعاه بارزان من يمين وشمال ، وهي جلسة كان يرتاح لها ، إذا لم تكن يداه مشغولتين بكأس أو تنظيف أنف ، أو تمعن أصابع . ومضى علوان شاكر يقول محاولاً أن يحرك في الحاضرين مشاركة وجدانية معلنة بالكلمات :

— في العراق عانيت من قلة الراتب ، ونصفه يذهب للإيجار . وإيجار الشقة هنا بثمان بخس مع الكهرباء والماء الحار ، والطب مجاني والأدوية بفلوس معدودة . ونحن لم نأت هنا لنخرب الاقتصاد ، ونبصق في الأناء الذي نأكل فيه .

انتفض الثلاثة لهذه التهمة . قال صالح :

— اسمع ، اسمع ... لانشر ملابسك الوسخة .

وقال يحيى سليم :

— أشد ما أكره العموميات !

قال صالح :

— يا جماعة أحكي لكم حكاية تفضح نفسية هذا الرجل . قبل أسبوع كنا نشرب البيرة ( حاول علوان أن يحتج فأمسكه من يده ) كنا نشرب البيرة عند شاطيء النهر ، فاججت البيرة المسالمة مشاعره ، فراح يشكو أيضاً ، ويشتم بصوت عال ، وهو يسير في وسط الشارع . جاءته سيارة من الخلف ، ونهته بمنبهها . فقف كالأرنب المدعور ، وراح يشتم السائق ، والذي وضع الدفة في يديه . والظاهر أن شرطياً كان يراقبنا ، فلما وصلنا اليه ، أدى التحية كالمعتاد ، وقال : هوية ! صاح به علوان : ولماذا تطلب مني هوية ؟ كان الأخرى بك أن تسحب إجازة السائق الذي أربعني .

قال الشرطي : أنت المذنب ، فقد كنت تمشي وسط الشارع . والشارع للسيارات .  
وأصر على طلب الهوية ، أو يمضي معه الى القسم . شبك علوان ذراعيه على صدره ، هكذا ، وقال  
رافعاً رأسه الى الأعلى : حتى لو جاء رئيس الجمهورية بنفسه ، وطلب مني أن أذهب الى القسم  
فلن أذهب . فما رأيك ؟ وحصلت مشادة ، كما يقولون ، لولا توسلاتي بالشرطي ، لحصلنا على  
رزالة من أخ لأخيه .

وضحك صالح معتبراً نفسه قد رد الالهانة . وقال ثابت :

— أمرنا الله بالستر ، فلنستتر !

كان الصيف الساخن يجعل الاجساد البشرية تنضو أكثر مانستطيع التخلي عنه من الثياب . وكانت الشمس الساطعة اللاهبة أحياناً تجعل هذه الأجساد كالتماثيل المرمرية المتحركة المتقنة الصنع الى حد سريان الدم فيها ، وتوهج حرته على الوجنات ، والأذرع العارية ، والصدور الريانة ، والسيقان المكشوفة الى مافوق الركبة بسنتمرات كثار . وحين تفتت حرارة الشمس في الأصائل كان الناس يزحفون أفواجاً الى المنتزهات والحدائق العامة بشوشين كمهرجان للألوان الزاهية ، ويتحلقون حول أكشاك بيع الدوندرمة والبيرة والمرطبات ، ويملاؤن طرقاتها المعرشة بروائح أجسادهم القوية التي تكتسب ، في الصيف ، عقب العافية المنعش ، الذي إذا امتزج برائحة العرق والتجيل المحضود ، وأوراق الشجر المتسلطنة بعث في الرأس نشوة المغامرة الى شيء غريب ، وغير محدود ، يفتك بأكثر الرؤوس رصانة . فكيف برأس رسمية ؟ كانت في أوقات فراغها ، حين يخرج علوان الى المكتبة ، كما يقول لها وتشكك هي في قوله ، تفتح نافذة الحجر في الطابق الحادي عشر ، وتطل على المدينة المستريحة على وسائد من الخضرة ، وتستمتع الى زققة العصافير . وبربرة السيارات من وراء البناية ، فترى الأطفال يلعبون في أرجوحاتهم وبيوتهم الخشبية ، وتلال الرمل ، ومكعبات البلاستيك الملونة ، والحصن الخشبية ، فيخيل اليها أن كل شيء ميسر لها كل شيء بلا قيود ولا حدود ، والناس أحرار طلقاء يفعلون ما يريدون أن يفعلوه دون أن يلتفت اليهم أحد ، أو تضايقتهم عين فضولية . وكان هذا يشعرها بالحسرة ، ويكشف لها السر في بقاء علوان هذه المدة بعيداً عنها . وكان قد خطبها ، وهي صغيرة ، في السابعة عشرة ، قبل أن يسافر الى سوريا للدراسة ، ووجدت نفسها تنتظره في بيت مزدحم بالبنين والبنات ، والكناز والأنساء ، حتى أكمل علوان الدراسة في دمشق ثم عاد فتزوجها . ولم يبق معها كثيراً ، فقد ضاق من التدريس في الرمادي ، بعد فترة قصيرة . وعند سنوح أول فرصة تركها ليكمل دراسته العليا هنا ، بأسرع مدة ، كما قال لها ، ولكن سنوات خمساً مرت دون أن يعود ... حتى ضاقت واشترت تذكرة سياحية ووجدته على ما هو عليه من الأثم ...

وحين كانت تضيق بها الجدران ، تتزوق ، وتخرج الى دنيا الناس . وكانت تلاحظ ، بفرح غامر واعتزاز ، نظرات الرجال الى صدرها الأسمر الناهد ، وذراعها العاريتين تقريباً . وكانت تضحك بسلطنة ، وتتحدثهم ، وتبتسم عن أسنان بيض كاللؤلؤ المنضود ، ولكن لكل الناس ، ولا

لأحد على وجه التعمين . وحين كان زوجها يسير الى جانبها ، كان يقول لها بلهجته المتعالية ،  
القاطعة الطالعة من الكتب الصفراء التي يقرؤها .

— أتمسكين أنهم ينظرون لجمالك؟ لا ، أبداً ، بل لتبرجك الفاضح ، لعريك القبيح ،  
ك... ك...

ولم ينطق بالمشبه به ، وكانت تعرف عجيذة القرد الذي يجب ترادها . لقد كانت له  
تشابيه المتداولة المتكررة الى مالا نهاية . فتقول له بلهجتها الغنجة المبطوطة .

— الله ! بدأت تغار؟

— لا أغار ، بل أحجل .

— كان الأخرى أن تحجل من صديقاتك ، أو زميلاتك اللواتي لا يدرسن إلا مع زجاجة

من الخمرة .

— سأقطع لسانك .

— وتحسب نفسك تقديمياً؟

— أكثر تقديمية من أبيك . ومع ذلك سأقطع لسانك .

ولكنه ، بدلاً من أن يفعل ذلك ، يكتفي بالقول :

— أنت طالق .

فتعيه بلهجته المبطوطة الاستفزازية :

— للمرة الـ... كم؟

وكان يتميز غيظاً عن صدق . كان شاربا يرتجفان ، وتعلو وجهه كدرة مشؤومة ، وكأنه  
طعن في كبده . وكانت في ردودها الباردة هذه تشعره بأنه محاصر ومغبون ، ومفتري عليه ، وأن  
البشرية ستخسر شيئاً كثيراً من هذه المخاصمة المستمرة ، والتنكيد الطويل . وكان يؤمن بأن  
المرأة ، إذا كانت لها خدمة حقيقية في الحياة فهي خدمة زوجها ، وتوفير أقصى الراحة له ، لاسيما  
إذا كان موهوباً ، وصاحب رسالة مثله ... بينما كانت هي تؤمن بأنها ند له ، وإن لم تنه دراستها  
الثانوية . ولكنها كانت تجيد الانجليزية ، وهو الشيء الوحيد الذي كسبته من بعدها عنه . ثم أن لها  
جمالاً يؤهلها ، كما تعتقد ، بأن يخدمها الآخرون ويلتفتون اليها . وإنما لم تخلق إلا لتصنع اللمسات  
الأخيرة لحياة رجل سيكون ضائعاً وناقص القيمة بدونها ، وأن لها حصتها في الحياة .

واليوم خامرتها نفس الأحاسيس ، وهي تنظر الى الأطفال يرحون ، والناس كالحمام الملونة  
ترى من مكانها في طابقتها العالي ، أعرافها الصافية الشقراء . ولم تعد تطيق البقاء في البيت ،  
وتلقي تلفونات صديقات زوجها الكثيرات وأصدقائه القليلين . لبست خير ملابسها ، وتزينت ،  
وتعطرت ، ووضعت قرطين في أذنيها ، وقلادة في عنقها ، وتناولت حقيبتها اليدوية من جلد

التمساح، وخرجت، وركبت الحافلة الكهربائية، فتوجهت الأنظار إليها. ولكن العجيب أن أحداً من الرجال لم ينهض ويتخلى عن مقعده لها، وظلت تتأرجح، وتسلي نفسها بالنظر من الشباك. كانت قصيرة القامة، فلم تكن تحتاج الى انحناء كبيرة لتنظر الى الخارج. كانت جسوراً، ولا تخشى أن تضل الطريق، يكفي أن تقول للانسان: دو يو سبيك انكلش؟ ويرأز... فيعرف اسم الشارع على الأقل. وكانت لها رنتها الخاصة في النطق بالكلمات الانجليزية، حين تمزجه فينجمها في النطق بالعربية، بنعومة صوتها، ويفتور النهايات...

كان اليوم يوم اثنين، ومع ذلك فقد كان المنتزه يمجج بالمنتزهين، وأغلبهم يسرون جماعات، فتياناً وفتيات، ويتكلمون بأصوات عالية، ويضحكون بخلو بال، ودت لو تشتري «اسيكمو» ولكنها خشيت أن تفسد تخطيط شفتها، وتدبق يداها. سارت شاعرة بنسيم الحرية يلثم لحمها، ويتغلغل في أطراف ثوبها الرقيق. كانت تتلذذ بوجودها المستقل، بمحسانتها، وقدرتها على التحدي، ورفع الصوت. فأين بغداد من هذه المدينة الطليقة التي لا يتلفت أحد فيها الى ما يفعله جاره، السائر الى جنبه. الرجال في بغداد يلتهمونك بعيونهم. ونظراتهم الوقحة تمردك من ملابسك، وتنصب لك الاشرار. نظرات عطشى لافحة متأمرة لا تتصورك إلا معه في الفراش. أما هنا، فالتناس يضعون في نظراتهم ضمائرهم النظيفة، فتلمع لمعان الفضة، وتشرق الوجوه بالطيبة استنشقت رسمية نفساً عميقاً، وزفرته بقوة، وكأنها تحاول أن تتخلص من بقايا غبار بغداد الرملي. قبل شهرين هبت على عاصمة الرشيد عاصفة رملية جعلت الهواء نبياً، والوجوه نحاسية صدئة، واختفى وجه الشمس والسماء وصارت أكواخاً مترية. تنفست رسمية بعمق أشد. وشعرت بثقة عالية في النفس، وبقدرة خفيفة، على الحركة والتصرف... حتى انبعثت من بحر نفسها فكرة جسور، صممت على تطبيقها. فلماذا لا التعرف على أحد هؤلاء الشبان النضريين المفعمين بالحوية للتسلية وللإغاظة على الأقل؟ سارت في درب معرش تتناثر المساطب الخضرة والصفرة والزرق على جانبيه، والناس قاعدون هناك. رأت شاباً يجلس على مسطبة يطالع كتاباً. جلست الى جانبه يفصل بينهما أقل من ذراع. جسارة! لم يرفع الفتى بصره إليها. ظل غارقاً في كتابه. انتظرت حتى يرفع عينيه. كان شاباً نحيلاً، مستطيل الوجه، وتبدلى خصلات من شعره الأشقر من فوق جبينه على عينيه، أثناء القراءة. يكشف قميصه القصير عن ساعد ملوح وساعة قديمة الطراز. والظاهر أنه أحس بنظراتها مصوبة نحوه الفتى إليها التفاتة خفيفة. ربما استنشقت عطراً غريباً عليه. ولما رآها تبتسم تلك الإبتسامة اللؤلؤية أعادة الكرة، فعاجلته:

— دو يو سبيك انكلش؟

— ومن حسن حظها أنه قال لها: «يس أي دو».

وبدأ حديثهما سلساً عذباً. سألته ماذا يقرأ؟ أدار لها غلاف الكتاب، وقال: دوما.

وخمنت بسليقتها مايقابل هذا الاسم بالعربية . سألته :

— هل تحب القراءة؟

قال متلهفاً :

— جداً، جداً . وأنت؟

— أيضاً .

— من أين أنت .

— من بغداد ... هل سمعت بها؟

قال مستبشراً :

— بالطبع ... حرامي بغداد .

وذكرها أنه رأى هذا الفيلم في طفولته عدة مرات . ومايزال يذكر المنائر والحصان الطائر والسوق ، والحبز والعسل . وأعجبها حديثه ، ابتسامته الطفولية ، وخصلات شعره النافرة . فقالت لنفسها ماذا لو استدرجه الى البيت وأغيط علوان به؟ وليعرف أي امرأة أنا! ماذا سيقول صاحب الآراء التقدمية دارس القرامطة والمبشر بعصر المساواة بين الرجل والمرأة؟ وصممت أن تفعل ذلك . ضحكت ضحكتها المغربية ، وقالت :

— وتحب القراءة بالانجليزية؟

— بالطبع ... أحبها جداً .

— عندي بعض الروايات البوليسية ، هل تحبها؟

أرسل آهة تعجب ، وقال : صحيح؟ أي لايك إيت فري ماتش! وبعد بعض دقائق من الحديث الشيق ، دعاها لتناول الدوندرمة . وكان يجيها أيضاً ، مثل الأطفال . سارا كطفلين يمضان الأيس كريم . وقد نسيت رسمية أحمر شفاهها ، أو لم تعد تكثرث به . قال لها أنه يحب الروايات التاريخية ، وروايات المغامرات . فقالت لتزيل الكلفة بينهما الى آخر حد :

— وروايات الحب؟

ضحك وقال : وهي أيضاً . أريك ماريا ريمارك ، وداعاً للسلاح . ثم سألتها :

— هل تعرفين غراهام غرين؟

هزت رأسها نفياً . عدد لها بعض أسماء الكتاب . فبقيت صامته ، ولم ترد بشيء . وعندما صعدت الباص ، أمسكها من مرفقها ليساعدها على الصعود . فشعرت بيده حارة لزجة . وكانت قد ربتت ، في ذهنها ، الوقت الذي ستدخل معه بيتها ، حين يكون علوان حاضراً ، فتفاجئه . ولكنها فاجأت نفسها بأن رأت البيت خالياً .

تمالكت نفسها ، وقالت له :

— سأصنع لك شيئاً عراقياً .

— وماهو لون الشاي العراقي؟

— بلون الدبس العراقي . — وماهو لون الدبس العراقي؟

— ضحكت حتى دفعت رأسها الى الوراء، وهزت خصلات شعرها، وقالت :  
— مثل التمر هندي .

بدت الحيرة على وجه الشاب، مما زادها فرحاً، وأشعرها بالسيطرة والثقة في النفس .  
اطلعت على الكتاب الانجليزي الوحيد لديها وهو لأغاثا كريستي : « الموت يأتي كنهاية » وأشارت  
الى ماجاء في الغلاف الأخير : « الشر في داخلنا » . فقال ضاحكاً :  
— انديد . يجب أن نتطهر .

ولم تعرف الكلمة التي نطق بها . ولكنها وافقته على « يجب » . وقرأت لتبرهن له على أنها  
تحسن القراءة : « استمع المخطوب الى تفسير سويك لبيع الأخشاب ... » قال الشاب : إنها لغة  
سهلة، وكأنها من كتاب مدرسي . ضحكت دون أن تفهم مغزى كلامه . وانحنت لتقرأ معه  
الصفحة، وإذا بالمفتاح يقلقل بثقب الباب . قال الشاب بدهشة :

— هو ايز ديس؟

قالت : « نفر مايند » والتصقت به بشكل أثار دهشته . وأهل علوان من باب الرواق .  
وبدا كالشبح في إطار رمادي . وكان أصفر الوجه، غائر الوجنتين، يرتعش طرفا شاربيه . قالت  
بصوت صاف واثق :

— سلم على الأقل .

عاجلها :

— من أين لك أبو بريص هذا؟

قال الشاب :

— هالو !

أجابه علوان في ضيق :

— هالو يو ! صرنا انجليز آخر الزمان .

نهض الشاب، وقدم نفسه، ومد له يده يصافحه . لم يصافحه علوان، ودخل الحجرة  
ليلقى حمله من الكتب، والمشتريات وعاد، وهو يحك أعلى شاربه بسبابته . عاد يقول لزوجته :

— لم تقولي لي بعد : من أين جئت بأبو بريص هذا؟

— أو، تأدب، ولا تسمه أبو بريص . إنه مرآة ذهب مجلوة إذا قورن بمخلقتك المزنجرة .

— عاهرة .

— أيها الزنيم، لاتتكلم بلغة سلوكك اليومي .



- لماذا لم يأخذك الى بيته؟
- لأنني عرضت عليه أن يأتي الى بيتنا لشرب الشاي .
- حقيرة ! تريدن أن تستفزيني؟
- لا . أريد أن أتمتع بشبابي . بس أنت وحدك؟
- أنا أضحي بشبابي في سبيل العلم والمعرفة .
- الله ! من يسمعك يقول : أبو حيان الجاحظ .
- أنت أمية ، ومستظلين أمية .
- لاأسمح لك بأن تتكلم بهذه اللغة .
- سأظل أقول أنت أمية . اخرجي مع هذا الزنديق .
- اخرج أنت ، ودعنا نتكلم بالانجليزي .
- شعر الفتى بحراجة الموقف ، فقال وهو يتلفت في وجهيهما .
- وتز ذي متر؟ أي ام سوري ايف ...
- قاطعه علوان غاضباً :
- سوري أنت وأبوك وأمك .
- ثم التفت الى زوجته ، وقال ملوحاً بأصبعه :
- ارجعي الى العراق ارجعي . ستشوهين سمعتنا .
- الله ! وأنت رافع رأس العراق عالياً .
- سأرفعه رغماً عنك . سترين . الشك سيقنتك قبل أن يقتلني .
- ردت عليه بالمثل الذي كان يردده أمامها دائماً :
- على نفسها جنت براقش .
- وكانت في قولها هذا مضحكة للغاية . فكأنها بذلك قد رشت ماء بارداً على أعماقه
- المتهبة . قال في شيء من التراجع :
- خذيه ، واخرجي .
- دعه يشرب الشاي على الأقل . أين الضيافة ، وأنت العربي؟
- لو استجبت لندائي العربي لقتلتك وقتلته .
- وهل رأيت زجاجة الحمرة بيننا ، كما رأيتها معك أنت؟
- رسم حركة نفاذ صبر برأسه . وسكت .

كان يحيى سليم يتشاءم من التلفونات الصباحية ، لأنها تفسد عليه يومه ، وتحذف حصة يوم كامل من العمل . فهي في أغلب الأحيان دعوة الى الخروج من البيت بمهمة مفروضة أو إغراء بمشروع ليس من ورائه غير وجع الرأس وتعكير المزاج . فيظل بقية نهاره متأثماً من جرم انتقاد اليه انقياداً . واليوم ، حين رن جرس التلفون تركه يدق طويلاً ، متكاسلاً أن يرفع السماعه . ولكن الجرس ظل يدق ويدق حتى اضطر الى رفعه . وكانت الساعة قد تجاوزت التاسعة بقليل .

— نعم .

— يحيى ، هل تسمعي ؟

عرف الصوت . وأي صوت نسائي يتصل به غيرها ؟

— سامعك ، سامعك .

أنا بحاجة شديدة اليك . أرجوك ساعدني .

— مالخير ؟

— أرجوك . سأقف لك في رأس الشارع ، شارعنا ، أنت تعرفه ؟ أو إذا أردت وقفت لك

عند الصيدلية .

خرج ، وارتعب . وحجل أن يسألها ليلم بأطراف الموضوع . كانت كالمستغيثة . وارتدت الى نفسه كل مخططاته لقطع علاقته بها . كان في صوتها ضراعة ، وحنان مكلوم ويأس واستفطاع عن شيء غير مسؤولة عنه . واستجمع يحيى فلول فروسيته المهزومة ، وتشجع ، وقال :

— حالاً . سأركب . التكسي وأتيك حالاً .

سد غطاء قلم الخبر ، وارتدى ثياب الخروج ، وطلع الى دنيا الناس . وجد الفتاة في انتظاره عند الصيدلية . كانت تبدو كالمذعورة أو الهاربة من شيء غير محتمل ، وكأنما خرجت لتوها من ظلام تلك الليلة التي تركها تذوب في ثناياها . قالت متهدجة الصوت :

— سأزعجك ... الجيران كلهم مسافرون في إجازة ونحن في العمل جميعاً من النساء . وهذا شغل رجل .

وتوجس « الرجل » خوفاً من مغامرة غير مأمونة العواقب . سمعها تتلمظ بشفتيها ، حين سمعت . كانت تبلل بلعومها الجاف سألها بقلق يكشف عن خوفه :

— ما الذي حدث؟

— والد زوجي المرحوم توفي اليوم فتحت عليه الباب فرأيتُه ممدداً كالنائم . ناديتُه ، لم يجب . اقتربت منه . وهالتي ارتفاع حنكه . أغلقت الباب ، وتلفتت الى الاسعاف ، حولوني الى قسم ايداع الجثث . ياويلي ، ياويلي ! وهناك قالوا لي هيموه لنا ! كيف نهييه ؟ اخلعوا ملابسه ، وغطوه بمفرش ... وأنا ...

وانفجرت باكياً ، ولم تستطع أن تكمل وشعر يحيى سليم بأنه مقبل على امتحان لرجولته ، إن لم تكن فروسيته . إن يعري ميتاً . لم يعد بحاجة الآن الى كلامها . وهي أيضاً لم تضيف شيئاً عما هو مقبل عليه . قالت فقط :

— تعودنا كل صباح أن يوقظنا . كان يستيقظ في الساعة السادسة ، وأحياناً قبل هذا . وفي الساعة يدق علينا الباب ، أنا والصغير ، لنتهياً خلال ساعة أقود الطفل الى الروضة . ولكن اليوم لم يدق علينا الباب . وأخذني النوم . استيقظت فزعرة . ونظرت في الساعة كانت الثامنة إلا ربعاً . ياويلي ! نهضت ، وأيقظت الطفل . وكان أيضاً يغط في نوم عميق . قلت له : أن جدك اليوم نكت بنا . انهض ، يا حبيبي ، تأخرت عن الروضة ، واستعجلت ، ورحت وجئت . وناديت الجد وناديت ، وما من جواب . اضطررت الى فتح الباب ... فرأيتُه ممدداً ...

قال يحيى سليم ليشجع نفسه :

— هل كان مريضاً؟

— أمراض الشيخوخة ، وقلب وضغط الدم . ولكنه كان معافى . كل التسويق عليه . أنا لألحق أن أفعل شيئاً . اخرج من العمل في الساعة الخامسة ، وكل يوم ، كل يوم ...

ومضت تنسج من أنفها وكانت تقول بين نشجة وأخرى : ماكنت سأزعجك لو كان جيراننا هنا . شقتان سافر أهلها للاستجمام . والشقة الثالثة يسكنها سائق تكسي خرج من الصباح ، ولن يأتي إلا بعد منتصف الليل .

سارا صامتين بعض الوقت . قال يحيى سليم لنفسه :

— سأواجه الموت لأول مرة في حياتي . فكيف سأواجهه ؟ هل سيثقل يدي فلا تطاوعني ؟ حاول أن يقتنع نفسه بأنه سيجابه حالة حيادية ، جسداً تخلت عنه روحه ، وبقي شيئاً مهملاً ، مثل ثياب رجل تركها على الشاطئ ، وراح يستحم في بحر الأبدية . وفي تلك اللحظة الحاطفة من الزمن مرت حادثة مماثلة في طفولته ، حين وجد ثياباً مرمية على شاطئ النهر ، فظنها ثياب شاب أبه من محلته مسلم لا يعتدي على أحد ، نفس الدشداشة المقلمة ، واللباس الطويل ، والخزام والعرقجين . فأراد أن يداعبه ، وأخذها من الشاطئ خلسة ، وركض يريد أن يختبئ في موضع ، ويرى من مخبئه كيف سيتصرف ذلك الأبله . ولكنه ماأن خطا عشر خطوات حتى أحس بكركية أقدام خلفه ، وقبل أن يتسنى له الوقت ليتلفت ، أمسكت رقبته من الخلف يدان

جبارتان، وكادتا أن تختنقه وكانت أنفاس حارة فاسدة تكتم أنفاسه . ولما استطاع أن يلتفت رأى رجلاً آخر غير الأبله يصرخ به :

— حرامي ... أدب سز ! فهل سيجابه مثل هذه الحال ؟ حاول أن يقمع هواجسه ، ويشتم نفسه ، ويطمئنها . واشتهى قذح حمرة ، مائة غرام من الحمرة للشجاعة ، كما يقال هنا . ولكنه أنكر على نفسه هذه الشجاعة الكاذبة . وقال في سره : ربما كان ثابت على حق . ويجب الخروج من الدائرة المعتادة ، ومجابه الموت وكل حالة محتملة بقوة أعصاب . ومثل هذه الفرصة تتاح له اليوم .  
— وصلنا .

سمعها تقول كان البيت من تلك البيوت التمثية الرمادية بطوبقتها التسعة ، ونوافذها المتقاربة ، وشرفاتها الصغيرة البيضاء المزينة بأصص الزهور ، والخزوز الواضحة الفاصلة بين قوالب جدرانها الكونكريتية .  
— في أي طابق ؟  
— في الثالث .

وصعد يحيى سليم الدرج خافق القلب ، وكأنه يقترب من معبد غامض ، في هذا البيت الغريب عليه ، حيث يسجى جثمان رجل لا يعرفه . سيقتمح عليه عزله مع الموت ، ويعريه . انقبضت نفسه ، وأحس باحتباس الهواء في رئتيه ، قبل أن يدخل البيت . ود بقرارة نفسه ، أن يلتقي بالطفل قرب الباب ، ذلك الذي لاعبه الكرة الملونة على ساحل بحر مزهر ، وفي جو طليق ، ود من كل قلبه أن يقول له : « عمو » ويمده بالشجاعة ، ويبدد وحشته ، ويذكره بأن له تاريخاً طويلاً على الأرض . ولكنه حدس اليقين بأن أمه أرسلته الى روضة الأطفال ، في مثل هذا اليوم الكئيب . قلقل المفتاح في ثقب الباب وانفرج الباب المغلف بجلد اصطناعي أسود عن باحة صغيرة فيها مشعب ، ومراة وأحذية ، ومشمعات مطر ، وعربة أطفال قديمة في أقصى الدهليز ، المؤدي الى المطبخ . أشارت الى غرفة بابها مغلق . قال لها : « انتظري » وحاول في لحظة الانتظار هذه أن يسيطر على أعصابه . وقال لنفسه : إنه حين سيدخل لن ينظر الى الميت ، بل الى الغرفة وما فيها من أشياء ، ليألفها ، فلا يكون متطفلاً عليها ، بل وكأنما جاء في زيارة ، كأنه طبيب جاء ليعالج مريضاً . ولكن هذا التصور أرحبه . فقد بث الحياة في « شيء » كان يريد أن يتصوره جامداً غائباً لاصله له بأي كائن بشري . توقف لحظة استطلت الى دهر .  
ولما رأى عينها ترفان قربه بتثبث متشكك ، قال ما خطر على باله :

— ماذا يلبس ؟

— في الغانيله واللباس .

وسرت له المهمة . لاحاجة الآن الى أن يتصوره مرتدياً ملابسه كلها ينتظره وراء الباب ، في مقابلة سرية . وحاول أن يقتنع نفسه بأنه سيللم أشياء انسان راحل . لأكثر من أن يخلع فانيلته ولباسه ، ويتركه عريان . وفتح الباب بجسارة ويدفعه واحدة ، ورأى السرير ، و« الشيء » الممدد عليه . كان يبدو وكأنه يغط في نوم عميق أو مخدر . قطع خطوتين أو ثلاثاً خافته الصوت محتلسة ، وكأنما يخاف ايقاظ نام . كان السرير واطفاً اضطرب يحيى سليم أن يشني ركبتيه ، فاصطدمت بنعال متهريء على البساط الصغير قرب السرير . نحاه ، وثبت قدميه ، وقال لنفسه : لا تخف ، يا صاحب النخيل المقطوعة الرؤوس . وقبل أن يزيح الغطاء عنه سمع صوت الفتاة يهمس قرب الباب : « لفه بالشرشف » أزاح الغطاء ، فاصطدمت أصابعه بيرودة صلبه . وبدا الصدر العظمي المضلع ، وخذنقا عظمي الترقوة ، ورمانتا الكتفين البارزتان . ولم يعرف كيف يحركه ليخلع عنه فانيلته ، رفع بصره . كان الباب مغلقاً . نهض من ركعته ، وانجه الى الباب ، وفتحته . وجدها جالسة على الكرسي مطأطأة الرأس . ولما رفعت بصرها اليه قال لها : هل عندك مقص ( لا يعرف كيف جاءت هذه الفكرة ) سأقصر ملابسه ، فما نفעה الآن ؟ ركضت وأخرجت المقص من فوق رف ، وأعطته إياه صامتة . وكانت هذه الحركة قد مدته بشيء من الجراءة ، فعاد الى حجرة الموت ثابت الحركات تقريباً ، وقص الفانيله طولاً ، وسحبها من تحت الميت ، ثم فعل نفس الشيء بلباسه الملون بورود صغيرة ، ولكنه صنع شقين من الجانبين ، وأخرج المزقة من تحت الميت ، وترك الأخرى الفوقانية تخفي حرمة . وبدا الآن أكثر سيطرة على العملية . الآن كان عليه أن يرفع المخدة من تحته ، ويعد وضع يديه على صدره . انسلت المخدة بسهولة ، مع تحرك طفيف في وضع الميت . أمسك اليدين الباردتين ودفع أحدها نحو الأخرى . أبدأت مقاومة ، وخشى أن يسمع فرقة العظام ، ولكنه لم يسمعها . طوى جانبي الشرشف من يمين وشمال ، ورد بدايته ونهايته على الرأس والقدمين ، وصار الميت قطعة من البياض الشاحب ، واختفى .

فتح الباب ، فوجدها على جلستها الأولى . ذارعاها مطويتان على حضنها ، ورأسها متدل . رفعت بصرها اليه . أشار بذراعه الى أن كل شيء قد تم كان حلقه جافاً فطلب منها شيئاً من الماء . أشارت الى أنيقة تستجلسه ، وهرعت هي الى المطبخ وجاءت بقدر الماء . وجلست بالقرب منه أليفة مطواعة ، كأنما يربطها به تاريخ طويل . سألها عن الطفل . همست أنها أخذته الى الروضة ، وقالت ، وهي تنظر في ساعتها : إنهم سيأتون بين لحظة وأخرى ليأخذوه . ولكنهم لم يأتوا إلا بعد الظهر . كان الحر قد اشتد ، أو هذا ما أحسها به ، ففتحا النافذة . دق الجرس فقفزت اليه ، وهو وراءها . دخلوا يحمولون تابوتاً مغلقاً من البلاستيك الأزرق ، وقالوا : أين هو ؟ مهياً ؟ وكانت أصواتهم الاعتيادية تبدو في البيت الصامت كالنعيب .

دخلوا على الميت ، وملأوا الحجرة بأصواتهم المستبدة ، وروائح أجسادهم القوية . أزاحوا

الغطاء، وشدوا وثاق اليدين والرجلين بتلك الحياضية القاسية، وكأنهم يعالجون دمية. وسمع يحيى سليم فرقة العظام هذه المرة، وحين أودعوا الجثة الصندوق البلاستيكي بعجالة ولا اكتراث، وقال يحيى لنفسه: نافع لك، يا يحيى أن تمارس شغلهم هذه أسبوعاً! وشعر بارتياح من أنه اجتاز امتحاناً عسيراً. وقال لنفسه: سأقول لثابت حسين أنني خضت تجربة أخرى بنجاح تقريبي.

عاد ثابت حسين من المستشفى فرحاً طلق الأسارير . قال له البروفيسور كوزين :  
تستطيع أن تنهياً للسفر مطمئناً . سنترك ابنك يعود الى دياره مطمئنين الى أنه سيعيش ماكتب  
له من العمر . وبدت هذه الكلمة من البروفيسور كوزين متواضعة جداً ، وغير مشبعة بروح  
العلم الواثق ، لأنها قد ربطت ابنه بالقدر ، والمكتوب على الجبين . واغتم لذلك في بادىء الأمر .  
ولكنه ، حين خرج الى الشارع ، وتنفس هواء الناس ، أمن بصدق مقاله العالم . فمن يضمن  
لك حياة معفية مما تخطط الأقدار خلف حجب الغيب ، ودهاليز المصادفة المجهولة ؟ وزاد من  
فرح ثابت أنه خرج من حالة الابهام ، حيث ظل طوال اسبوعين فاقد اليقين مما يجتبه المستقبل ،  
وتقلباته . والآن تقرر أن يأخذ ابنه ، أن تنقل اليه المسؤولية كاملة . كان صدره يزخر بالمشاعر  
المتشابكة غير المحددة كلياً . قرر أن يخلو الى نفسه . في حالة امتلاء الصدر بالمشاعر كان يركن  
الى نفسه لتصفو ، ويتبينها بوضوح ، ويتأكد من حقيقتها . ذهب الى فندقه ، وأغلق عليه الباب ،  
وقال ، وهو ينظر الى النهر المسترخي تحته بكسل ، أنني أصبحت أباً ، ولا كل الآباء . صار لي  
شيء يخصني ، مأساتي ، حالتي الخاصة ، غذائي الخاص الذي سيلازمني ، وأتعود عليه ، ويصبح  
من حقائق حياتي التي لاترد ، ولابد من توطين النفس عليه . وعندما صممت الأفكار في ذهنه ،  
تذكر حالة ماثلة ، لا ، لا ليست ماثلة على الاطلاق . كيف يميز لنفسه أن يماثلها حالته ؟ كان  
لأحد أقربائه ابن ولد قاصر في نموه الذهني ، متضخماً في نموه الجسدي . رآه ذات مرة متربعاً على  
الأرض ، وأمامه صحن من الرز والمرق . كان يأكل ويتكلم ، أو بالأحرى يههم بأصوات غير  
مفهومة . وكان لا يستطيع تصويب الملعقة الى فمه ، فكان يذلق حبات الرز على صدره وثيابه ،  
كان أسود متأكسداً ، يشير الى الأشياء ، ويتكلم مع نفسه . وكان والداه على مقربة منه لا يكثران  
به ، أو يعتبرانه حقيقة حياتية لابد أن يقتنعا بها ، ولا يمكن أن يتخليا عنها . ذلك قدرهما .  
وواجهما .

ولكن ثابت عاد فلحن نفسه لأنه سمح لنفسه بأن يقارن ابنه بتلك الحالة الميؤوس منها ،  
ابنه الذي عاد مفتتحاً للحياة ، عامر الذهن بأشياء كثيرة ، وإن كان معطوباً كما عبر يحيى سليم .  
لن يزاول كل مايزاوله الناس ، أو بنفس الطريقة التي يزاولونها . ولكنه سيزاولها بحدود طاقته  
الجسدية . وسيجد الوقت الكافي ليتأمل الناس في حركاتهم المقصودة وغير المقصودة ليتخلصوا

من عبء الطاقة المخزونة التي لا يعرفون كيف يصرفونها .

رفع سماعة التليفون وتلفن ليحيى سليم . وترك الجرس يرن وقتاً طويلاً ، ومع كل دقة كان يتسرب من قلبه الأمل في لقيا صديقه . صارت الوحدة لاحتتمل مع توارد أفكار مقلقة . لبس سترته ، وأغلق حجرتة وخرج .

وجد ثابت صديقه يحيى بين تلك المجموعة العتيده من عباد الموائد . حاول أن يستله من بينهم . ولكن فرائض الغداء الأسطورية قد بدأت . وضعوا كرسياً له الى جانب يحيى ، وأفردوا صحناً ، بحثوا له عن قده . لم يجده . كانت الأقداح كلها مشغولة . قال يحيى سليم :

— لاتعبوا أنفسكم . أبو حسان لا يشرب على الغدا .

ولكن أحدهم تناول قدهاً من المائدة المجاورة ، ووضعه أمامه . قال ثابت :

— سأشرب اليوم .

— لطيف . لا بد أنها أخبار سارة .

— سيعطونني ابني خلال أيام .

كانت هناك بعض الوجوه الجديدة . ولكن أغلب الوجوه معهودة .

قال صالح جميل :

— يعني ، ستغادرننا؟ كل أطايب العيش هنا ، يا استاذ!

— شغلي هناك ينتظرني ... تأخرت بما فيه الكفاية .

كانت بعض الوجوه الجديدة متجهة نحوه باستفسار . تبرع صالح ليقول :

— الاستاذ عنده ابن يتعالج من أثر حادث سيارة .

استفسر بعضهم منه :

— والحادث كبير؟

— كبير .

قال آخر .

— نحن نعرف كيف يسوق سائقونا هناك . بلا قواعد ، ولا تدري من أين يأتيك : شمالاً أو يمينا .

— الأخ هو الذي كان يسوق السيارة؟

— ياليت .

— كيف ، ياليت؟ هل كنت تتفادى الاصطدام .

قال ثابت وهو يرفع كأسه :

— دعونا نترك الموضوع . نحن على مائدة شرب .



عدل ثالث :

- أرجوك ، يااستاذ ، نحن على مائدة غداء .
- ولتكن مائدة غداء ولكنها حافلة .
- تريد أن تقول : كم تكلف هذه المائدة في بغداد؟
- تبه آخر في نهاية المطاف الى أنهم يتحدثون عن حادثة اصطدام قال :
- في بغداد حوادث الاصطدام أكثر بكثير مما هنا . لاسيما في الطرق الخارجية .
- في بغداد كل شيء أكثر من اللازم .
- همس الذي كان جالساً الى يسار ثابت برزاة :
- الحادثة قوية ؟
- قوية ...

ونظر الى صالح جميل يعاتبه على إثارته الموضوع .

— هل كان السائق سكران ؟

— لأبداً . الجميع صاهون .

قال آخر يبدو عليه السكر :

— يعني الجريمة أكبر .

وجد ثابت حسين نفسه محاصراً من يساره ومن أمامه ، يتحدث أمام عيون متعطشة

لاشياء جديدة . تتسقط كل شيء يثير اهتمامها ... مجرد فضول . قال ملطفاً الموضوع :

— كل شيء قضاء وقدر ، أو مصادفة ( ونظر الى يحيى سليم نظرة خاطفة ) وقع الحادث

بعد ظهر يوم الخميس ، في سيارة صاروخ .

وبلع ثابت ريقه ، وهو يجد صعوبة في استرجاع الحادث .

— ها ، ها صاروخ ، هذه التقلية الجديدة في بغداد .

— كانت السيارة تسير في الطريق قرب طويريج . الطريق قرب طويريج عالية .

— متى كان ذلك ؟

— اسكت ، عباس .

— وإذا بها تجابه بسيارة مصلحة من أمام ، وسيارة جيش لوري قادمة من أحد الشوارع

الفرعية ... ( وتوقف لحظات ) اسمحو لي ، لأستطيع أن أدخل بالتفاصيل .

— طيب ، نخب سلامة ابنك . المهم سيعود الى بغداد سالماً .

— إن شاء الله .

قال أحدهم متأهاً :

— وباليقينا جميعاً نعود سالمين ، وبعد حادثة الاغتراب عن الوطن .

- أنت بشكل خاص ، لأضمن لك سلامة العودة .
- أنت من يضمن لك ؟ اسمك في القائمة .
- انسحبت الضجة الى طرف المائدة الآخر . وحلا الجو . التفت يحيى الى ثابت ، وقال :
- إذن ، ستغادرننا عن قريب ؟
- نعم ، وأرجو أن نلتقي عن قريب .
- قال يحيى :
- نلتقي ! أين ؟
- الدنيا ضيقة ، وإن كانت تبدو واسعة .
- وأنا مقصوص الجناحين ؟
- لن تظل هكذا . ألا تتوقع عودة أخرى ؟
- من أين ؟
- من وراء الجبال .
- مط يحيى سليم شفتيه بابتسامة ساحرة ، وقال :
- برقية أخرى ؟ وهل يغير ذلك من الأمر شيئاً . كنا ندور ولكن في فلكين مختلفين .
- ( يعني نعود الى نظريتك في الأفلاك ! ) ولم يستطع أحدنا أن يجذب الآخر الى فلكه . هذه هي المشكلة . وستظل قائمة .
- قال ثابت حسين :
- الزواج عقد تنازل بين طرفين لمصلحة طرف آخر هو العائلة المقبلة .
- هذا ما يجب أن يكون ، ولكن ...
- وشعر يحيى سليم بمرارة في فمه غسلها بماء معدني ، وقال متشجعاً :
- على كل حال لنشرب نخب المستقبل ، بيرية أو بغير بيرية .
- لنشرب .
- ودفع بقية كأسه في جوفه ، ويرير ، وقال ممتعضاً :
- صحيح أنها أم الكبائر .
- شعر بتدبّق في داخله . بعد صمت قصير قال ثابت كالهامس :
- قرأت هذا الذي سميت به ...
- قاطعته يحيى بأن رفع ذراعه بعيداً في الهواء .
- اتركه ...
- لا ، أبداً ، عرفت الكثير منه عنك .
- لم أعد ذلك الذي تتحدث عنه تلك الصفحات ... لقد تغيرت خلال أيام .

- ولاعب أصابعه الثلاثة . وكثر على أسنانه . وتابع يقول :
- أنا معك في أن الانسان يحتاج لمجاهة الحياة الى الكثير من القسوة . وأضيف أيضاً  
والى الكثير من الغفلة ليوافق نفسه . لامكان للقديسين الطيبين حقاً في هذا العالم ... ولا مكان  
لهم إلا في كتب الدعوات والابتهال الذي هو عجز عن مجابهة العالم والتحكم في المصير .
- تركة ثابت يفرغ مافي نفسه . ولكنه سكت عن القول ربما لأن الأفكار تصارعت في  
ذهنه ، ولم يعرف مايقدم منها وما يؤخر .  
هدأه ثابت بأن قال :
- لأبأس ... سترى أن كل شيء سينتهي نهاية حسنة .
- تشجيع للزوم له . أنا الآن أفهم .
- وصمت . وجلجلت أصوات أخرى كانت تتراهن على فريقين من فرق كرة القدم .  
والخاسر يدفع ثمن هذا المائدة . وعاد يحيى سليم يقول :
- أنا الآن أفهم أنها مسألة هينة أن يفقد الانسان أبوته لابنه ، ولكن أن لا يحس بالمسؤولية  
إزاء مايجري في وطنه ... فتلك ...
- وضرب حافة المائدة بأصابعه . ولم يكمل . وكان الحديث في الطرف الآخر عاد ليتناول  
عودة حازم الى العراق .
- أجل عودته ؟
- نعم ، يقول أنه ينتظر برقية من أهله يعني : أو . كي .
- يعني صار على قائمة الانتظار ؟
- هو مثلنا ، يفعل مع وقف التنفيذ .
- اسمع ، نصيحتي يا حازم ، سافر . مادامت الجبهة لم تلتف أنفاسها بعد .
- لن يسافر ، ولو على رؤوس الحراب .
- يا جماعة ، هل تريدون أن أحكي لكم آخر نكتة ، ويمكنكم أن تطبقوها على الجبهة .
- تفضل ، تفضل .
- قيل أن الأمريكيان اكتشفوا طائرة عجيبة غريبة ، هي بين المركبة الفضائية والطائرة  
الاعتيادية ، تستطيع أن تحلق حتى تلامس الغلاف الجوي ، وتقوم بمناورات معقدة هناك ، بل  
وتستطيع أن تتوقف في الجو نصف ساعة . لم يصدق الناس ، ولا أحد يستطيع أن يثبت  
ادعاءات الامريكانيان . فاضطرت الحكومة الامريكية أن تدعو طياراً من دولة صديقة ليتأكد بنفسه  
من ذلك . ولما عاد الطيار من رحلته ، سأله :
- ها ، يابا ، هل صحيح مايقولون ؟ قال ربما . وهل جربت أنت بنفسك ؟ قال حاولت أن أجرب ،

أن أدوس على هذا الزر، أو ذاك . ولكنهم كانوا يلطمونني على يدي ، ويقولون : لاتلعب . وحتى زر التحكم بالأكسجين ، فقد شعرت بالاختناق من قلة الاوكسجين في تلك الأجواء العليا . حاولت أن أدوسه أي لأزيد الأوكسجين فضربوني على يدي ضربة جعلتني أتخلى عن كل محاولة لي . وإذا أردتم شاهداً على محاولاتي الصادقة ، فهاتان يداي المتورمتان شاهدتان على ذلك .

ضحكوا، وقال أحدهم :

— يعني ، ماذا تريد أن تقول ؟ يُوجل حازم سفره ؟

— افهموا من ذلك ماتريدون .

— طيب ، حازم ، أجل سفرتك .

قال يحيى في ضيق :

— كلكم مؤجلون ...

— وأنت ؟

قال بالعمارة مرارته :

— وأنا أيضاً .

قال آخراً :

— نحن ضحايا عالم طريد — لا .

قال صوت :

— سكت دهرأ ، ونطق كفرأ .

— أولئك الساكتون الكافرون ؟

— الخمرة تجعل الألسنة طويلة ... الساكتون الكافرون هم الذين لايشربون .

— أحسنت ، أبعدت شبهة الكفر عنا .

كان يحيى يحس بأنه معزول . كانت الزبوة تتجمع في صدره .

قال رافعاً صوته :

— هلا سألتم أنفسكم أية صلة لنا بالعالم ؟

— كيف أية صلة ؟

— نحن في قلب العالم .

— أنا أسمع نشرة الأخبار أربع مرات في اليوم ، ومن كافة المحطات .

— وتنتظر أن يغير الآخرون العالم لك ، ويقدمونه لك ، جاهزاً على مقياسك ؟

وتزقت المائدة الى مجموعات من الأصوات المتجاولة ، المتنافرة . وبذلك انتهت مائدة

الغداء .

في اليوم التالي استيقظ يحيى سليم بنفس الساعة التي يستيقظ فيها كل يوم . ومد يده تلقائياً الى جهاز الراديو الى يساره . إلا أنه سحبها كالملدوغ . وقال لنفسه : لن أسمع اليوم نشرة الأخبار . وطوى جسمه في بطانيته ، وقال : لن أفطر اليوم . سأنام مثل صالح جميل الى الساعة الثانية عشرة . لن اشتغل اليوم . لن أفعل شيئاً . وبقي مشلولاً مخدراً ساعة أو نحوها . وبعد ذلك أحس وكأنه سيسقط مريضاً . دار فكره ، وجمال . ووجد نفسه يردد : « سأفقدته ، سأفقدته ... سيسافر » ثم قال لنفسه : « من موقعه هناك يستطيع أن يفعل شيئاً . أما هنا ، فماذا أستطيع أن أفعل ؟ كلنا مشاريع مؤجلة » واغتاز لمآل تفكيره . ودومت في أعماقه سوررات غضب وتمرد . أزاح البطانية من جسمه ، وهب منتفضاً ومارس عاداته الصباحية آلياً ، وحين فرغ منها رأى منضدة الكتابة تنظر اليه ببتم . فجلس عليها ، وتناول القلم ، وأنشأ يفعل مايفعله كل يوم . وبعد الظهر دق جرس التلفون :

— صباح الخير ، يااستاذ!

حنق يحيى سليم وقال :

— قلت لك ألف مرة : قل بعد ظهر الخير ...

— الآن استيقظت من النوم ... طيب ، من أجل خاطرك : بعد ظهر الخير أو نهارك

سعيد ... هل ستخرج لتناول طعام الغداء؟

قلب يحيى السماعه بين يديه ، وكأنها أثر من عهد تاريخي قديم ، وقال قبل أن يضعها :

— في الخريف ...



### صدر للمؤلف

١٩٥٤	بغداد	« مجموعة قصص »	١ — حصيد الرحي
١٩٥٩	بغداد	« مجموعة قصص »	٢ — مولود آخر
١٩٦٦	بيروت	رواية	٣ — النخلة والجيران
١٩٦٧	بيروت	رواية	٤ — خمسة أصوات
١٩٧٤	بغداد	رواية	٥ — المخاض
١٩٧٥	بغداد	رواية	٦ — القربان
١٩٧٩	بيروت	رواية	٧ — ظلال على النافذة
١٩٨٢	بيروت	رواية قصيرة ومجموعة قصص	٨ — آلام السيد معروف











